T
34A

العلاقات التشريعية
بين فرنسا وسوريا ولبنان قبل الحرب
العالمية الاولى

رسالة كتبت تحت اشراف الاستاذ الدكتور نقولا زيادة
وقدمت الى دائرة التاريخ في جامعة بيروت الاميركية
لنوال درجة استاذ في العلوم

عدنان قواف

حزيران سنة ١٩٥١

مقدمة

لا ادري في الواقع لماذا اخترت موضوع العلاقات التقليدية بين فرنسا من جهة وسوريا ولبنان من جهة ثانية قبل الحرب العالمية الاولى ؛ من بين مواضيع عدة يمكن البحث فيها ؛ وبطريقة اسهل وادق مما اتيح لي ان اقوم به في بحثي هذا . واغلب الظن ان الايام التي مرت بي ومن الانتداب وما رافقها من ادعاءات اجنبية ؛ هي التي جعلتني اميل الى تعقب هذه الادعاءات في شتى الميادين .

لقد اخترت الموضوع دون ان ادرك تحديد لاوله لانني كنت اجهل عنه كل شيء تقريبا ؛ لكن استاذي الدكتور نقولا زيادة ؛ الذي كان مرشدي خلال العام وله الفضل الاكبر في تسديد خطواتي المضطربة ؛ فضل ان احصره بين سنتي ١٨٦٠ و ١٩١٤ . ولما بدأت اجمع المواد ؛ وجدت ان سنة ١٨٦٠ لا تشكل حدا فاصلا في تاريخ العلاقات الفرنسية السورية ؛ وانه لا يمكن فهم هذه الصلات الا اذا عدنا الى جذورها وتتبعنا نموها . لذلك فضلت ان اطلع البحث حسب تسلسله التاريخي ؛ ما امكن الامر ؛ في كل ميدان على حدة ؛ مع العناية بالنصف الثاني من القرن التاسع عشر بشكل خاص . وانا مع ذلك غير راض تماما عن محاولتي بعد ان انتهيت منها .

ولا يسعني في ختام هذه الكلمة الا ان اقدم شكري الى استاذي الدكتور نقولا زيادة الذي قرأ هذه الرسالة فاصلح اخطاءها جهده ؛ وكان له الفضل في ابرازها الى عالم الوجود ؛ لانني مررت بفترة يئست فيها من امكانية اتمام هذا البحث ضمن المهلة المحددة والامكانيات الضيقة المتوفرة له في مكتبة الجامعة . فكان تشجيعه هو الذي دفعني الى السير قدما . وآمل ان اعيد النظر فيها عندما تتاح لي الفرصة لاسدد هفواتها واكمل نواقصها .

كما اني مدين بالكثير الى استاذي الدكتور نبيه امين فارس ؛ رئيس دائرة التاريخ في الجامعة ؛ الذي كان لتوجيهه القومي الطيب وروحه العلمية الاثر البعيد في تحبيب البحث والتنقيب الى نفسي بعد ان انقطعت عشر سنوات كاملة عن الدراسة .

ولجميع اساتذتي في الدائرة العربية في هذه الجامعة خالص شكري وتقديري .

الطالب

عدنان قطوف

القسم الاول

دعاوى الفرنسيين :

تردد ت على السن الفرنسيين قبل الحرب العالمية الاولى وبعدها تعابير تشير الى علاقات تقليدية بين فرنسا من جهة وسوريا ولبنان من جهة ثانية • ولم ترد هذه الدعاوى عن تخصصيين او كتاب دعاية فقط وانما شاركهم فيها رجال فرنسا الرسميون امثال بوانكاريه عندما كان رئيسا للمجلس النيابي الفرنسي سنة ١٩١٢ (١) وكلمنصو في كتابه الى البطريرك الماروني الحويك سنة ١٩١٩ (٢) • اما من الكتاب فنكتفي بريستلهوبر (٣) وفونتوبيرون (٤) وبسيكاري (٥) امثلة على هذا الاتجاه لا في التفكير الذي استغل في الحرب العالمية الاولى لحث فرنسا الانتداب على شمالي سوريا واوسطها اي ما يعرف اليوم بالجمهورية السورية والجمهورية اللبنانية وهو الجزء الذي سنقصر دراستنا عليه في هذا البحث • وسنشير بكلمة سوريا للدلالة على ولايات دمشق وبيروت وحلب مراعاة للواقع التاريخي في زمن بحثنا •

بدء العلاقات

قبل ان نبحث عن نوع العلاقات التي قامت بين فرنسا وبين سوريا ولبنان يجدر بنا ان نعين نقطة الانطلاق التاريخية المعقولة لهذه العلاقات والاسباب التي اوجدتها •

اما نقطة الانطلاق فان الفرنسيين انفسهم مختلفون في تحديدها • فمنهم من يجعلها قديمة جدا مدعيا ان صلة فرنسا بالشرق كانت قائمة ابداً " سواء قادت فرنسا الاقطاعية او الملكية او الجمهورية وسواء كانت ممالك الشرق للروم او العرب او الاتراك " (٦) • ويرى آخرون انها تعود بشارلمان (٧) بينما يجد غيرهم بان الحروب الصليبية هي بدء العلاقات الموثقة بين فرنسا والموارنة (٨) • اما ريستلهوبر الذي خصص كتابا كاملا لبحث هذه التقاليد فانه يعتبر

---

(١) ريستلهوبر ، ر • ، " التقاليد الفرنسية في لبنان " باريس سنة ١٩١٨ • ص : ٢٨٥ • (وقد القى بوانكاريه هذا الخطاب في المجلس النيابي الفرنسي بتاريخ ٢١ كانون الاول سنة ١٩١٢) •
(٢) " الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب " اصدرته جريدة " الايام " دمشق سنة ١٩٣٧ • ص : ١٣٥ (وتاريخ الرسالة ١٠ تشرين الثاني سنة ١٩١٩)•
(٣) ريستلهوبر IX (٤) الكونت ر• دي فونتوبيرون ، " كيف استقرت فرنسا في سوريا " باريس سنة ١٩٢٢ • ص : ٤ • (٥) بسيكاري كيان ، " سوريا " وهو تقرير مقدم في ١٤ نيسان سنة ١٩٢٠ الى " جمعية علم الاجتماع " في باريس • ص : ١٤ •
(٦) رودرر ، كارل بهول ، " سوريا وفرنسا " باريس سنة ١٩١٧ ص: ٤ • (٧) بسيكاري ١٤
(٨) غالب غبير ، " حماية فرنسا الدينية في الشرق ، دراسة تاريخية وسياسية " افينيون ، اوغاسيل ١٩١٣ ص • ١٦٩

امتيازات سنة ١٥٣٥ " نقطة الانطلاق لحماية فرنسا للكاثوليك في الشرق " [١] او بعبارة ثانية مبدأ لهذه التقاليد .

ان صلة شارلمان بهارون الرشيد وبالتالي بالشرق لم تثبت تاريخيا فكيف نسلم بما هو قبل شارلمان حينما كانت فرنسة مجزأة الى اقطاعات متنافسة فيما بينها . اما الحروب الصليبية فهي ليست علاقات طبيعية ولم تنفرد بها فرنسة ، وان قدمت اغلبية الجنود الصليبيين ، ولما استعاد المسلمون البلاد انقطعت علاقاتها مع الغرب تقريبا من جديد ، الا بفتح علاقات تجارية كانت تقوم بها المدن الايطالية مع سواحل البحر المتوسط . وهكذا نصل الى الامتيازات . فما هي هذه الامتيازات ؟ ومن الذي منحها ؟ وفي اية ظروف منحت ؟

الامتيازات : معناها

استعملت هذه الكلمة للدلالة على تلك الاتفاقيات التي عقدت بين الدولة العلية ودول اوربا [٢] ويقابلها باللغات الغربية " Capitulation " التي تعني الاستسلام في زمن الحرب لجيوش العدو [٣] والتي اخذت فيما بعد معنى اتفاق يستثنى بموجبه الاجانب في بلد ما من احكام هذا البلد في اغلب الامور المدنية والجنائية اذا وقع هذا البلد ذلك الاتفاق [٤] . ويفسرها سوسه بانها تعني اتفاقا يمنح بموجبه الاجانب المقيمون في تركيا حمايات خاصة وحقوقا ، كما يصبحون خاضعين كل الى انظمة بلاده الى حد ما [٥] . وذلك لان غير تركيا لم تمنح في العصور الحديثة مثل هذه الامتيازات . وبما ان سوريا في الفترة الواقعة بين ١٥١٦ — ١٩١٨ كانت جزءا من الامبراطورية العثمانية فقد شملتها هذه الاتفاقيات .

---

(١) ريستلهوبر ٧٨

(٢) نالت الولايات المتحدة حصتها في ٧ ايار سنة ١٨٣٠

(٣) الموسعة البريطانية ، الطبعة ١١ مادة Capitulations

(٤) كوك نفس المصدر السابق

(٥) سوسه ، نسيم ، " نظام الامتيازات في تركيا : تاريخه ، نشأته ، طبيعته " بلتيمور ١٩٣٣ . ص : ٣

الامتيازات : خلال التاريخ

كان اليونان ينظرون الى الاجانب كاعداء ويعاملونهم بقسوة . وكذلك كان الرومان الذين اعطوا للاجانب وللاعداء نفس الاسم (hostes) ، فلما توسعت مدينة روما وجاءها الاجانب لم يسمح لهؤلاء بحقوق اهل المدينة مما اضطر الاجانب لفض مشاكلهم بانفسهم وفقا لقوانينهم الخاصة (١) .

وبقيت هذه الطريقة متبعة في القرون الوسطى فاحتكر ابناء المدينة او البلاد حقوق المواطنين وواجباتهم ، معتبرين حق المواطن ثمينا جدا فلا يمتد الى الغريب . فلما نما عدد هؤلاء الغرباء وكثرت ثروتهم وعظمت قوتهم روئي من حسن السياسة اخضاعهم لقانون واعتبر قانون بلاد الغريب نفسه اسهل حل يطبق (٢) . وهكذا تجمع الغرباء كل اهل بلد على حدة ليؤلفوا جالية تسكن خانا كبيرا خاصا بها دعي (fonde) او (fondique) (٣) .

فاصل الامتيازات اذن يعود الى مبدأ " شخصية القانون " اى ان قانون اى بلد ينتقل مع افراده حيثما حلوا ويطبق عليهم . وكان هذا المبدأ قد اصبح عالميا حينما افتتح الاتراك القسطنطينية (٤) . فالاتراك لم يبتدعوا هذا النظام وانما طبقوه لانهم وجدوه معمولا به ولان في الشرع الاسلامي نظاما شبيها به هو نظام المستأمنين (٥) .

تحليل منح الامتيازات

عزا بعض الكتاب منح الامتيازات الى الفارق الديني بين المسلمين من جهة والمسيحيين من جهة اخرى (٦) والى عدم امكانية التوفيق بين تشريع الاسلام السماوي وبين تشريع المسيحيين الانساني المتطور (٧) . ولا ننكران بعض الكتاب قصدوا لهذه الحجة فدحضوها مستشهدين بتسامح

---

(١) المصدر السابق ٧ — ٨ (٢) الموسوعة البريطانية مادة (Capitulations)
(٣) سوسه ١٧ — ١٨ (٤) المصدر السابق XI
(٥) " الاحكام السلطانية " للقاضي ابي يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي ، القاهرة ١٩٣٨ ص : ١٤٥ — ٦
(٦) مشنوق ، عبدالله ، " الامتيازات الاجنبية " بيروت سنة ١٩٢٢ ص : ٢٣
(٧) سياسي قديم ، " نظام الامتيازات : تاريخه ، تطبيقه ، تعديلاته " باريس ١٨٩٨ . ص : ٢ و ١٥ .

الاسلام تجاه اهل الذمة والمستأمنين (١) . وعزاه آخرون لرغبة السلاطين في جلب التجار الاجانب الى بلادهم (٢) لان العثمانيين لم يكونوا بارعين في التجارة . وربما كان هذا السبب معقولا لو ان السلاطين ابتكروا الامتيازات ولكنهم ورثوها عن البيزنطيين وغيرهم من الامم ، اضف الى ذلك عاملا جديدا حدا بهم الى عقد اتفاقياتهم الاولى مع فرنسا بالذات وهو العداوة المشتركة ضد النمسا (٣) والذى استغله فرنسوا الاول للحصول على الامتيازات الاولى سنة ١٥٣٥ بعد ان مهد لها برسل ومفاوضات طويلة .

ومهما يكن من امرها فانها لم تكن في البدء نتيجة ضعف لان الدولة الاسلامية العثمانية كانت آنذاك في ابان مجدها ، ولا نتيجة عدم ملاءمة التشريع الاسلامي لغير المسلمين وللغرباء وقد حفظ هذا التشريع حقوق المستأمنين من الغرباء اجيالا طويلة . ولكنها منحت (٤) لان العالم باسره كان يطبقها حينذاك ولان الاتراك ارادوا مراعاة مقتضيات السياسة . ولما قويت الدول الاوربية وفهمت فكرة سيادة الدولة مفهوما جديدا نتيجة لاستقرار الجماعات والتقدم الاقتصادى والمنافسة الدولية ، اصبحت قوانينها تسرى لا على المواطنين فحسب بل على كل من يوجد على اراضيها ولو موقتا (٥) اما الدولة العثمانية فكانت حينذاك قد ضعفت وتألبت عليها الدول الغربية فلم تتمكن من الغاء هذه الاتفاقيات الدولية التي ارتبطت بها (٦) بينما كانت هذه الحقوق عند الدول الغربية مجرد عرف ازالته بموجب قوانين اصدرتها .

اول الامتيازات

كان الافرنسيون قد عقدوا مع آخر سلاطين المماليك قانصوه الغورى اتفاقات تجارية ، فلما دخل العثمانيون مصر جددوا هذه الاتفاقات مع اضافة تسهيلات جديدة سنة ١٥٢٨ (٧) وذلك

---

(١) بيرون ، پ ، م . ؛ " الاجانب في تركيا ، نظامهم القضائي " . پرنستون ١٩١٤ ص : ٧ و ابوشهلا ، حبيب ؛ " الغاء الامتيازات في تركيا والمناطق العربية " باريس ١٩٢٤ ص: ٤٨ و سوسه ١٥ و ١٥٨ — ٩

(٢) بنوا ، اوغست ؛ " دراسة حول الامتيازات بين الامبراطورية العثمانية وفرنسا وحول الاصلاح القضائي في مصر " باريس ١٨٩٠ . ص : ٨ — سوسه و غيز ، هنرى ؛ " صورة سريعة للحالة السياسية والتجارية في سوريا " . باريس ١٨٦٢ . ص : ٥٤ .

(٣) داسون ، بول ؛ " تاريخ التجارة الفرنسية مع المشرق في القرن الثامن عشر " . باريس ١٩١١ ص: ٢٦٥

(٤) لانها من قوى لاضعف منه وذلك عكس رأى " البشير " في عددها ٣٠١٣ بتاريخ ٥ ايار سنة ١٩٢٣

(٥) ابوشهلا ٨١ (٦) مشنوق ٢٣

(٧) راجع صورة الاتفاق في " سياسي قديم " ٤٩ — ٥٤ .

بناء على طلب الاتراك التجار الافرنسيين المقيمين في الاسكندرية . ثم جاءت نكبة فرنسوا الاول على يد شارل الخامس فكر فرنسوا بالاستعانة بخصم شارل الخاص الذى هو السلطان سليمان القانوني ونجحت مساعيه السوية ورسله وكان عربون الصداقة بين دولته فرنسا وبين الدولة العلية امتيازات سنة ١٥٣٥ (١) وهذه الامتيازات هي معاهدة صداقة وتجارة فقط (٢) وتتألف من ست عشرة مادة تهتم بحرية التجارة ومرور المراكب وحماية الممتلكات المنقولة وضمان الحياة ... وربما كانت اهم مادة فيها هي التي تبحث في الادارة القضائية وتخويل القنصل محاكمة مواطنيه الافرنسيين مدنيا وجزائيا بدون تدخل السلطات التركية عندما يكون الخلاف فيما بينهم ، وجزائيا كما تنص على حرية العبادة وعدم اعتبار الافرنسيين مسلمين (٣) الا اذا اعلنوا اسلامهم طوعا . ويعفى كل من رعايا الفريقين في بلاد الفريق الاخر من الضرائب والخدمات بانواعها الا اذا اقام الفرنسيون في الدولة العثمانية اكثر من عشر سنوات متوالية (٤) .

تجديد معاهدة ١٥٣٥

بعد ان عهدت معاهدة سنة ١٥٣٥ الاساس للاجانب في حقل الامتيازات (٥) اصبح تجديد هذه المعاهدة بحكم العادة تقريبا كلما قام سلطان عثماني جديد . وفي كل مرة كانت تجدد فيها كان يضاف اليها امتيازات او تأكيدات اخرى جديدة . فقد تجددت سنة ١٥٦٩ (٦) في ثماني عشرة مادة ويلاحظ فيها عدم تحديد مدة الاعفاء من الضرائب بعشر سنوات للافرنسيين المقيمين في الدولة العثمانية ، وجددت سنة ١٦٠٤ في خمسين مادة (٧) واصبح بموجبها كل اجنبي ، ليس لدولته تمثيل سياسي مع الدولة العلية ، تحت حماية فرنسا عندما يتاجر مع اى جزء في البلاد العثمانية . واعيد التجديد سنة ١٦٧٣ في ثمان وخمسين مادة (٨) وفيها يؤكد السلطان وجوب احترام كنائس اليسوعيين والكبوشيين في غلطا وكنائس الفرنسيين في جميع الثغور (٩) وان لا يجمع من هذه الكنائس ضرائب .

---

(١) تنسط ، البارون الفريد ولمولد دى ، " مجموعة معاهدات الامبراطورية العثمانية " عشرة اجزاء . باريس ١٨٦٤ — ١٩١١ . ص : ٢٣ من الجزء الاول

(٢) سياسي قديم ٦٠ ، وسوسه ٥٣

(٣) يلاحظ في المعاهدة استعمال كلمة " اتراك " للدلالة على المسلمين مادة ٦

(٤) المادة ١٥ (٥) براون ٣٣ ، سوسه ٦٨

(٦) نورادونجيان ، فريدمل افندى ، " مجموعة الوثائق الدولية للامبراطورية العثمانية " ، اجزاء باريس ١٨٩٧ — ١٩٠٠ . المجلد الاول ص : ٨٨

(٧) المصدر السابق ٩٣ (٨) المصدر السابق ١٣٦

(٩) استعملت كلمة " ثغور " في تعريب كلمة " Echelles " المأخوذة عن " اسكلة " التركية لان الافرنج عنوا بها المدن المهمة في اطراف البلاد سواء كانت على الساحل كصيدا او الى الداخل قليلا كحلب التي كانت ملتقى القوافل . والعرب استعملوا " ثغور " بهذا المعنى تقريبا . راجع طسون (القرن الثامن عشر) ١٣٩

وجاءت سنة ١٧٤٠ وكانت فرنسا قد آزرت تركيا في عقد معاهدة بلغراد فعوضت تركيا لحليفتها جميلها بتجديد الامتيازات في ٨٥ مادة (١) فاضافت الى تعهداتها السابقة السماح لقناصل فرنسا ومن يتبعهم من رجال دين وتجار وتراجمة بصنع النبيذ في بيوتهم او باستيراده من الخارج لمؤونتهم العادية دون ان يزعجهم احد (المادة ٤٠) ؛ كما منح قناصل فرنسا حق التقدم على بقية القناصل في البلاد العثمانية ؛ واعفى خمسة عشرة فقط من خدم السفير الفرنسي في القسطنطينية الذين هم من العثمانيين المسيحيين من الضرائب (المادة ٤٧) . وفي هذه الامتيازات يتعهد السلطان الاول مرة باسمه وباسم خلفائه من بعده (المادة ٨٥) كما انه يمنح الفرنسيين بعض الامتيازات بشأن زيارة القدس وكنيسة القبر المقدس فيخضع جميع الاجانب الذين يودون القيام بهذه الزيارة للحماية الفرنسية . وحفظت للفرنسيين حرمة مساكنهم فلا يجوز للسلطات التركية دخول هذه المساكن الا بحضور القنصل او من ينيبه (المادة ٧٠) . كما يلاحظ ان السلطان يسمي ملك فرنسا لويس الخامس عشر — وذلك لاول مرة في تاريخ الامتيازات — صديقه .

وليست هذه هي المرات الوحيدة التي جددت فيها اتفاقية سنة ١٥٣٥ قبل سنة ١٧٤٠ ولكنها جددت مرات عديدة على شكل كتاب من السلطان الى ملك فرنسا لا بشكل اتفاقية ذات بنود كما حدث في سنتي ١٥٨١ ؛ ١٥٩٧ ؛ ١٦٠٩ ؛ ١٦١٨ ؛ ١٦٢٤ ؛ ١٦٤٠ ؛ ١٦٤٩ ؛ ١٦٨٤ .

وبعد انسحاب الفرنسيين من مصر جدد نابوليون الاول العلاقات مع تركيا سنة ١٨٠٢ (٢) على اساس الامتيازات السابقة كما جددها لويس فيليب سنة ١٨٣٨ (٣) حيث نص على ان كل امتياز يمنح للاجانب لم يذكر في الامتيازات الافرنسية يصبح من حق فرنسا التمتع به . ثم اعاد تجديدها نابوليون الثالث سنة ١٨٦١ (٤). ويلاحظ ان التجديدين الاخيرين لم يهتما الا بالتجارة بينما كان هم نابوليون الاول انهاء حالة الحرب مع تركيا واعادة العلاقات معها الى سابق عهدها .

على ان اتفاقية سنة ١٧٤٠ بقيت حتى الغاء الامتيازات الاجنبية الصك المعول عليه في العلاقات بين فرنسا وبين الدولة العلية باستثناء تعديلات بسيطة ربما مرت بنا فيما بعد .

---

(١) نورا دونجيان ؛ المجلد الاول ٢٧٧
(٢) [illegible] ٢٤ سياسي قديم ١٨٨
(٣) [illegible] ٢٢ المصدر السابق ١٩٥
(٤) [illegible] المصدر السابق ٢٠٤

تعليق على الامتيازات

قد يستغرب احدنا اليوم عندما يطالع نصوص تلك الاتفاقيات المبرمة بين الدولة العلية من جهة والدول الاوربية من جهة ثانية كيف قبل السلاطين ان يمنحوا رعايا اصدقائهم من العلوك — ولا نقول اعداء هم ذوي المصلحة في الدولة العثمانية — ما لم يناله رعايا السلطان نفسه . بل على العكس لقد اضطر العثماني لدفع اكثر مما يتوجب عليه ليحوز من الراحة والرفاهية لهذا الاجنبي الذي يتحكم في التجارة والسياسة والخيرات العثمانية وهو معفى من الضرائب ٤ ٥٪ من من الاذى لا تطاله يد العدالة التركية . لقد بدأت الامتيازات بشكل منحة من السلطان لرعايا اصدقائه ولكن هذه الروح اخذت تتغير كلما تجددت الامتيازات حتى اصبحت تنتزع من السلاطين بحق القوة للاجانب مما حمل دارفيو ان يكتب من القسطنطينية الى لورد الرابع عشر " ان الوقت حان لارغام الاتراك على ما نريده فالصدر الاعظم يخشى جدا قطع العلاقات مع فرنسا " (١) .

ومما يزيد في استغرابنا ان هذه الامتيازات لم يشترط فيها المقابلة بالمثل على الاقل حتى في ايام عز السلطنة بل كانت تمنح من جانب واحد فقط (٢) دون مقابل .

وهذه الامتيازات نفسها هي التي جعلت الاجانب " يشعرون انهم اعلى من الوطنيين فاصبحوا ينظرون الى الشرقي في بلاده نظر السيد الى العبد الحقير " (٣) . لقد اخضعت الدول الاوربية الاجانب في بلادها لانظمتها فلما طالبت تركيا بالغاء الامتيازات في مؤتمر باريس سنة ١٨٥٦ وبعده كانت هذه الدول تهيب لابقاء القديم على قدمه ولشل تركيا عن التقدم . وهذا التأخر الناتج في الدولة العثمانية من عوامل عدة من اهمها تدخل الاجانب ٤ كان الاجانب يتكونه على العثمانيين ويحتجون به لاخراج تركيا من حظيرة الدول الراقية . واذا كان هناك ما يثير فهو ادعاء احدهم " ان الامتيازات ليست نعمة بل حقا اكتسبته العهود " (٤) فبماذا يمكن ان يتمتع الاجنبي اكثر مما خولته الامتيازات من حقوق ؟

وعلى كل حال فاننا لا نستطيع ان نهتم كثيرا بالقوانين الصادرة والانظمة العديدة فالمهم كيفية تنفيذها ووجه استعمالها وحسن النية او انعدامه في فهمها ٤ كما يهمنا معرفة الحد الذي اثرت فيه هذه القوانين في خلق نفوذ للفرنسيين في سوريا ولبنان او في خلخلة هذا النفوذ اذا وجد .

---

(١) بنوا ١٤ (٢) براون ١٢
(٣) شفوق ٢٥ (٤) البشير عدد ٣٠١٣ تاريخ ٥ ايار سنة ١٩٢٣

وارى هنا ان اذكر القارىء الكريم ان الامتيازات المدونة هي ليست كل ما حصل عليه الاجانب ؛ فقد حصلوا على غيرها عندما بدأت الدولة العثمانية في الانحلال فكانوا يقومون بعمل ما لم تدونه الاتفاقيات فاذا سكتت عنه الدولة العلية وتكرر اصبح اصطلاحا وعرفا كالامتياز المدون سواء بسواء (١) . ومن امثلة هذه الامتيازات العرفية البريد الخاص بقنصلية كل دولة .

ما هي علاقات فرنسا التقليدية

قلنا في بدء هذا البحث ان فرنسا تدعي وجود علاقات تقليدية بينها وبين سوريا ولبنان ؛ وقد رأينا ان المعتدلين من الفرنسيين يجعلون الامتيازات اساسا لهذه العلاقات ؛ وقد مرونا بالامتيازات فرافقناها منذ نشأتها حتى آخر تجديد لها وذلك بايجاز ولكن يهمنا الان ان نحدد ما تقصده فرنسا بهذه العلاقات :

١" — ان فرنسا تدعي لنفسها الحق بحماية الكاثوليك في المشرق (٢) بموجب الامتيازات(٣)
٢" — وتدعي وجود روابط سياسية بينها وبين سوريا ولبنان
٣" — وتدعي وجود روابط اقتصادية وثقافية

ونحن لا نريد ان ننكر او ان نثبت ايا من هذه الحقوق احتياطا ولكننا نفضل ان نسير مع التاريخ لنرى في النتيجة مقدار ما يمكننا ان نسلم به للافرنسيين من هذه الادعاءات .

---

(١) بيرون ٥١ ؛ سوسه ٨٧ — ٨

(٢) ماسون (القرن الثامن عشر) ؛ ٥٠٩ يعرف المشرق بما يلي : " المشرق كلمة مبهمة تعني اربع مناطق كبيرة هي اسواق تختلف اهميتها وانواعها وتشمل : آسيا الصغرى وسوريا ومصر وتركيا الاوربية "

(٣) ريستلهوبر ٢٢ .

القسم الثاني

القناصل والجاليات

اضطرت الامم التي عملت في التجارة الخارجية ان تعين من ينوب عنها في البلاد الاجنبية فيمثل تجارها ويدافع عن مصالحها ويسهل لهم الاعمال وفي الوقت نفسه يحافظ على مصالح دولته وبلاده . وقد بدأ تعيين القناصل في العصور الوسطى [1] حيث كانت المنافسات بين الشعوب شديدة .

لقد كان التجار من احد البلاد المقيمين في بلد اجنبي يتكتلون بشكل جالية مستقلة في حي منعزل ، وهناك وكلاء يشكلون شبه جمهورية صغيرة فيما بينهم يطبقون فيها شرائع بلادهم الاصلية وقد منحت الامتيازات حق تشكيل الجاليات للفرنسيين .

اول تنظيم للجاليات الفرنسية

زاد عدد المقيمين الفرنسيين في الثغور زيادة كبيرة في ايام هنري الرابع مما دعا لتنظيم حياة هؤلاء المغتربين . فجمع المقيمون من الفرنسيين في كل ثغر في جماعة سميت "جالية" [2] تجتمع في مؤتمرات للنظر في شؤونها ويرأس الجالية القنصل وهو الى جانب رئاسته للجالية ومؤتمراتها قاضيها والحامي عنها [3] كما سيمر معنا عند بحث واجبات القنصل .

وتتألف الجالية الفرنسية في الثغور من تجار وصناع كان من واجب كل منهم قبل ان يغادر بلاده ان يحصل على رخصة من غرفة تجارة مرسيليا حتى يتمكن من الاقامة في الثغور ولكن هذه القاعدة لم تطبق مطلقا بدقة [4] . فقد نجح بعضهم في السفر والاقامة دون رخصة . ثم اضافوا الى الرخصة من غرفة تجارة مرسيليا وجوب الحصول على تأشيرة من مفتش التجارة للمشرق وذلك بموجب القوانين الصادرة في فرنسا سنتي ١٦٨٥ و ١٧٠٠ . كما اضافوا فيما بعد وجوب وضع كفالة قبل السفر (٥) . وقد أتت الترتيبات السابقة اكلها فكان تنظيم الجاليات في القرن الثامن عشر احسن مما كان عليه في القرن السابع عشر [6] .

---

(١) بنوا ٤ (٢) استعملت جالية في تعريب " Corps de la nation "

(٣) ماسون ، بول " تاريخ التجارة الفرنسية مع المشرق في القرن السابع عشر " باريس ١٨٩٦ ص : XXX

(٤) المصدر السابق ٤٥٩

(٥) ماسون (القرن الثامن عشر) ١٤٩

(٦) المصدر السابق ١٥٢ .

وفي ٣ اذار سنة ١٧٨١ صدر في فرنسا مرسوم ينظم الجالية الفرنسية فقسمت ادارتها بين ثلاث سلطات : القنصل والنواب والجمعية العامة للجالية . فصار افراد الجالية ينتخبون في اول شهر كانون الاول من كل عام نوابهم الذين يبدؤون مهمتهم في اول كانون الثاني التالي . ووظيفة هؤلاء النواب السهر ، بالاتفاق مع القنصل ، على المصالح التجارية للجالية وعلى الجالية نفسها ، ودعوة الجمعية العامة عند اللزوم ومخابرة غرفة تجارة مرسيليا بما يجد في المستعمرة .(١)

تسعيلات خاصة

وكان افراد الجالية مقيدين ببعض التعليمات اشدها وقعا في نفوسهم كان اضطرارهم للعيش بدون نساء (٢) ولم يستطع بعضهم تحمل هذا المنع فاقترن ببعض المسيحيات من اهل البلاد سواء كانت رومية او ارمنية او مارونية ولكن هذه الزيجات سببت اصدار قوانين يحرم بموجبها من يتزوج احدى رعايا السلطان من حق حضور البعض اجتماعات الجالية (سنة ١٧١٦) ، اما الذي يتزوج فرنسية فيعتبر مخلوعا من وظائفه (٣) .

واولى الجاليات التي تنظمت في سورية كانت في صيدا ، وبيروت وطرابلس وحلب (٤) ولا يزال بدء سكنى التجار الفرنسيين وتفاصيلهم في المشرق يكتنفه الغموض، حتى انهم في القرن السابع عشر لم يكن لديهم معلومات وافية عن ذلك (٥) .

سكن الجالية

سكنت الجالية في بادئ تنظيمها في بناية واحدة ضخمة سميت " بالكامب " مستطيلة الشكل مغلقة تماما من ناحية الخارج الا عند المدخل ، تتألف من طابقين حول ساحة كبيرة داخلية وفي وسط هذه الساحة عادة حوض للماء وفي الطابق الاسفل حول الساحة ممر ذو قناطر تفتح عليه ابواب الحوانيت بينما تستعمل غرف الطابق العلوي للسكن (٦) . وهكذا نرى ان الجالية كانت مستقلة عن بقية اجزاء المدينة

---

(١) بنود ١٩ (٢) ماسون (القرن الثامن عشر) ١٥٤
(٣) المصدر السابق ١٥٥ (٤) ماسون (القرن السابع عشر) ٤٦٣
(٥) ماسون (القرن السابع عشر) XIV (٦) المصدر نفسه ٤٦٣

تقريبا . ولكن هذا الحال لم يدم بعد اواسط القرن التاسع عشر فتفرق بعض التجار من افراد الجالية في المدينة نفسها او ما حولها .

ولم تكن الحالة تختلف في اوربا عنها في الثغور العثمانية في اوائل العصور الحديثة بما يتعلق بالجاليات ، لكن الدول الاوربية التي شعرت فيما بعد بحقها في مراقبة الاجانب واخضاعهم لتشريعها الفت هذه الامتيازات بينما حافظت على امتيازات رعاياها في الدولة العثمانية (١) .

وقد بقي تنظيم الجاليات السابق الذكر معمولا به حتى الحرب العالمية الاولى ولا يزال في بيروت حتى اليوم افرنسي يحمل لقب " عميد الجالية " .

القناصل

كان التجار في بدء امرهم ينتخبون من بينهم قنصلا ويكون عادة اقدمهم في الثغر (٢) مهمته تمثيل مواطنيه لدى السلطات المحلية وتطبيق شرائع البلاد الام في الجالية (٣) . وتدل الوثائق على ان جان بونيه قنصل طرابلس تسلم اوراق اعتماده في ٥ ايار سنة ١٥٤٨ وخلفه فرانسوا تيسيه في ٢ حزيران سنة ١٥٥٠ . ثم لوران بونيه في ٢ كانون الثاني سنة ١٥٦٠ (٤) .

كانت غرفة تجارة مرسيليا قبل القرن الثامن عشر ترشح الاشخاص لمناصب قناصل في الثغور فيوافق عليهم الملك فلما جاء هذا القرن لم تعد للغرفة مداخلة بل اصبح الوزير يعين القناصل رأسا . ومع ذلك فقد بقي اغلب القناصل من المرسيليين (٥) حتى انه يلاحظ في كثير من الاحيان توارث المنصب القنصلي بين افراد العائلة الواحدة (٦) .

وقد انشئت قنصليات فرنسية في صيدا سنة ١٦١٦ وفي حلب حيث انتقلت اليها قنصلية طرابلس ، ولم تعد القنصلية الى هذه المدينة الا سنة ١٧٢١ بعد قرن من الاهمال (٧) . اما في دمشق فقد وجدت قنصلية سنة ١٦٣٠ لكن لوكاس الذي زارها سنة ١٧١٥ لم يجد فيها افرنسيا (٨) وجدير بالذكر

---

(١) بنوا ٥
(٢) هاسون (القرن السابع عشر) XLV
(٣) بنوا ٤
(٤) هاسون (القرن السابع عشر) XLV
(٥) هاسون (القرن الثامن عشر) ١٤٠
(٦) المصدر السابق ١٤١ — ٢
(٧) المصدر السابق ٥١٣
(٨) المصدر السابق ٣٨٦

مدينة دمشق المتحصنة بقيت تقريبا بدون قنصليات الا ما كان منها بايد تجار حتى دخول المصريين سنة ١٨٣٢ فان المستر فارين الذى ارادت انكلترا ان تفتتح به اول سلسلة قناصلها في دمشق لم يستطع دخول المدينة الا بعد دخول ابراهيم باشا سوريا رغم انه عين منذ سنة ١٨٣٠ (١) . وافتتحت فرنسا في اللاذقية نيابة قنصلية سنة ١٧٧٩ تابعة لطرابلس (٢) .

ولما زارت مدام فرني هذه البلاد في اواخر القرن التاسع عشر كان لفرنسا في سوريا :

قنصلية عامة في : بيروت
قنصليات في : حلب ، دمشق ، حمص ، طرابلس
نيابة قنصليات في : اللاذقية ، صيدا
وكالة قنصلية في : حماه ، حمص (٣)

وكانت بيروت في بادئ امرها تتبع قنصلية صيدا حتى قام ابو نوفل الخازن فتمكن بصداقته مع الفرنسيين ان ينال تعيينه قنصلا في بيروت سنة ١٦٦٢ وبقي آل الخازن يتوارثون هذا المنصب حتى سنة ١٧٥٣ .

وظائف القناصل

مر معنا ان القنصل كان عميد الجالية فهو المسؤول عن ادارتها وعن حفظ النظام في حيها ، وبناء على هذا الحق فقد سمح له بموجب المادة ٨٢ من مرسوم ١٧٧٨ ان يوقف ويعيد الى فرنسا كل افرنسي يضر سلوكه بالصالح العام للجماعة (٤) ، كما ان من وظائف القنصل مراقبة تنفيذ الانظمة والقوانين من قبل التجار وربابنة المراكب الفرنسيين ، ضمن نطاق عمله ، ومجازاة المقصرين منهم والاخبار عنهم بالاضافة الى واجبه في تفتيش البضائع لمعرفة مدى انطباقها على الانظمة وخاصة الاجواخ منها وتقديم التقارير عن تجارة فرنسا مع مركز عمل القنصل وتحليل تقدمها او تأخرها (٥) .

---

(١) تريس ، ر ، " مجلة جمعية تاريخ المستعمرات الفرنسية " باريس ١٩٣٦ ص : ٣٦٢ — ٣٦٦
(٢) ماسون (القرن الثامن عشر) ٥١٥
(٣) فرني ، مدام نويل " الدول الاجنبية في المشرق وسوريا وفلسطين " باريس ١٩٠٠ ص : ٨٠
(٤) بنود ١٩ — ٢٠
(٥) ماسون (القرن الثامن عشر) ١٤٢ — ٣

وعلى القنصل ان يورث غرفتين للاستقبال احداهما على الطريقة الافرنجية والثانية على الطريقة الشرقية [١] وان تكون مائدته معدة يوميا لاشخاص عديدين ، الدائمين منهم هم التراجمة وجهورى الجالية ، وان يقدم الهدايا للباشوات الاتراك [٢] حتى يحتفظ بالعلاقات الطيبة معهم .

ولتلافي هذه المصاريف الضخمة — وكانت ميزانية فرنسا مثقلة بسبب الحروب الدينية التي قامت فيها — فرض هنرى الرابع ضريبة للقناصل قدرها ٢ ٪ يدفعها التجار الفرنسيون على البضائع التي يشحنونها من المشرق ، وكذلك من التجار الذين يرفعون العلم الفرنسي لحمايتهم [٣] .

ويقول ماسون ان مهمة القنصل في القرن الثامن عشر كانت اسهل من ذى قبل لان الباشوات كانوا اقل ظلما وتحكما والجاليات اطوع [٤] . ويجب الا ننسى ان التجار كانوا مضطرين لكسب رضى القناصل لحاجتهم اليهم في قضاء الاغراض والدفاع عن المصالح [٥] .

المحاكم القنصلية

نصت الامتيازات على ان المحاكم القنصلية تتولى النظر في القضايا بين الاجانب من جنسية واحدة (المادة ١٥ و ٢٦ من امتيازات ١٧٤٠) [٦] . وبناء على هذا الحق كانت المحاكم القنصلية تفصل في المنازعات بين رعايا دولتها وفي قضاياهم ؛ اما اذا كان الاجانب من جنسيات مختلفة فاما ان تنظر في القضية المحكمة القنصلية للمدعى عليه [٧] ، واما ان تشكل لجنة مختلطة من قنصلي المدعي والمدعى عليه للنظر فيها [٨] . فلما جاءت سنة ١٨٨١ بدأت الدولة العثمانية تدعي لمحاكمها حق النظر في القضايا بين الاجانب من جنسيات مختلفة [٩] .

اما في الخلافات التي تنشب بين عثمانيين واجانب فلم يكن للمحاكم القنصلية صلاحيات للنظر فيها بل تحول للمحاكم العثمانية الا فيما يتعلق بالافلاس والارث [١٠] . وقد ادعت بعض الدول ان لقنصلياتها

---

(١) ماسون (القرن السابع عشر) ٤٦٤
(٢) المصدر السابق ٤٤٦ — ٧
(٣) المصدر نفسه XXIX
(٤) ماسون (القرن الثامن عشر) ١٤٢
(٥) ماسون (القرن السابع عشر) XXIX
(٦) براون ٥٢
(٧) المصدر السابق ٦٦
(٨) بنوا ٢٣
(٩) سوسه ٧٨ — ٨٦
(١٠) براون ٧٥

حق النظر في القضايا الجنائية بين الاجانب والعثمانيين اذا كان المتهمون اجانبا لكن الباب العالي لم يوافق على ذلك (١) . ومع ذلك فقد اشترطت الدول على المحاكم العثمانية ان يحضر ترجمان قنصلية الاجنبي الدعوى ويوقع ضبطها والا اعتبرت ملغاة (٢) .

ولدفع التشويش اتفقت تركيا مع الدول فانشأت في سنة ١٨٣٩ محاكم تجارية مختلطة في المدن الرئيسية التي يقطنها الاجانب ومن بينها بيروت (٣) ؛ وتتألف هذه المحاكم من ثلاثة حكام اتراك ومن مساعدين اجنبيين وتنظر في الخلافات التجارية بين العثمانيين والاجانب اذا كان المبلغ يزيد عن الف قرش .

ولما سمح للاجانب باقتناء الاملاك في الامبراطورية العثمانية ما عدا في الحجاز بموجب قانون ٨ كانون الثاني سنة ١٨٦٧ اصبحت القوانين العثمانية من حيث الضرائب والتركة والبيع والرهن للعقارات تطبق على الاجانب وتنظر المحاكم العثمانية فيما يتعلق بالخلافات الناشئة عن هذه الامور على ان يوقع الترجمان ضبط الدعوى (٤) .

تنظيم القنصليات وتشريعها

اعطت الامتيازات هذه الحقوق للاجانب فاضطرت دولهم لاصدار تشريعات خاصة ينظمون بها القضاء القنصلي وحقوق القناصل وواجباتهم تجاه مواطنيهم وتجاه الدولة العلية . واهم المراسيم التي اصدرتها فرنسا كانت في سني ١٦٨١ و ١٧٤٩ و ١٧٧٨ و ١٧٨١ و ١٨٣٦ واهمها من حيث تنظيم القضاء القنصلي العدني مرسوم سنة ١٧٧٨ بينما يعتبر مرسوم سنة ١٨٣٦ اساسا لتنظيم القضاء الجنائي وكلاهما يرتكز على مرسوم سنة ١٦٨١ (٥) .

ويجب ان نذكر كما قال ماسون " ان قيمة الامتيازات كانت تتوقف على قيمة السفير " (٦) في الاستانة .

---

(١) سوسه ٧٨ — ٨٦
(٢) بنوا ٢٣ و ٤٠
(٣) المصدر السابق ٣٧
(٤) سوسه ٧٨ — ٨٦
(٥) سوسه ٥٩ و ½ بنوا ١٧
(٦) ماسون (القرن الثامن عشر) ٢٨٠

الحمايـــة

انواع الحمـايـة

منحت الامتيازات ليس فقط للموظفين القنصليين الفرنسيين بل ايضا لاتباعهم من التراجمة والخدم حمايات واسعة . وما اطلقوا به السطح لهم بجلب النبيذ لاستعمالهم الشخصي ، او صنعه في بيوتهم (المادة ١٥ من امتيازات ١٧٤٠) كما منح الفرنسيون عامة حرية شخصية واسعة سواء في العبادة او التجارة او مزاولة الحرف او الاقامة او السفر وكذلك حفظت لهم حرمة مساكنهم فلا يدخلها الموظفون الاتراك بالقوة الا بمرافقة القنصل او من ينوب عنه (المادة ٧٠ من امتيازات ١٧٤٠) .

ولكن اهم مما سبق كان اعفاء هؤلاء الموظفين وهم من التبعة العثمانية من الضرائب (المادة ٤٧ من امتيازات ١٧٤٠) ولم يكن ذلك بالامر القليل في بلاد تسود فيها الرشوة والضرائب الاعتباطية [١] ، فاقبل الناس يريدون التوظف في القنصليات [٢] لتشملهم هذه الامتيازات ولئن حدد الباب العالي عدد من يحق للسفير ان يستخدمهم في قصره بخمسة عشر فان هذا لم يمنع السفراء من زيادة اتباعهم عن العدد المحدد .

واذا كان ابناء البلاد قد رغبوا في التوظف لدى رجال السلك السياسي الاجنبي فان هؤلاء لم يكونوا اقل رغبة من اولئك العثمانيين في قبولهم ، لان ابناء البلاد يتقوون من جهة الرواتب [٣] بينما لو اضطر القناصل لاستعمال الفرنسيين فقط للترجمة وغيرها من المهام لكانت الكلفة باهظة .

والى جانب المحميين القنصليين من قناصل ونواب قناصل ووكلاء قنصليين وتراجمة وكتاب وحراس ، الذين تمتعوا بنفس امتيازات الاجانب ولو كانوا من ابناء البلاد ، نرى فئات اخرى من المحميين اهمها :

١" — المحميون الاجانب : وهم افراد الدول التي لم تتبادل التمثيل الدبلوماسي مع السلطنة العثمانية فتكلف دولتهم احدى الدول بحماية مصالحهم فيصح لهم نفس حقوق وامتيازات رعايا الدولة التي تحميهم . وهؤلاء اضمحلوا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تقريبا لان كل الدول نالت امتيازات لرعاياها او تبادلت التمثيل الدبلوماسي مع الدولة العلية [٤] .

---

(١) باركر ، جون ؛ " سوريا ومصر تحت حكم السلاطين الخمسة الاواخر " جزآن لندن ١٨٧٦ الجزء الاول ص : ٣٧

(٢) ماسون (القرن السابع عشر) ٤٥٤

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة

(٤) سوسه ٩٣ — ٩٧

٢" — بعض الرهبنات والجماعات الدينية ويتمتعون امتيازات رعايا الدولة التي تحميهم بالاضافة الى امتيازات تشبه امتيازات السلك الدبلوماسي [١] في اعفائهم من المكوس وغيرها من الضرائب واغلبهم كان يتبع البابا وتدافع عنهم فرنسا [٢] اما بصفتهم :

آ — مرسلين فرنسيين فهم كاثوليك ومواطنين

ب — مرسلين كاثوليك ولو كانوا غير فرنسيين

جـ — كنائس كاثوليكية وطنية

والبابا هو الذى امر المرسلين الكاثوليك التابعين له برفع علم فرنسا على موسساتهم في الشرق ووافق على حماية فرنسا للكاثوليك واعترف بها بل " ان البابوات انفسهم كانوا يطلبون تدخل فرنسا لحماية مصالح رجال الدين وظالما ما كانت الصلات مباشرة بين الرهبنات والموظفين الفرنسيين " [٣]. وسنمر بهذه الرهبنات في بحث الارساليات .

٣" — المحميون من ابناء البلاد [٤] وهم اكبر الفئات عددا لان كل عثماني كان يستطيع وهو في قلب بلاده ان يكتسب الحماية الاجنبية سواء كان مسيحيا او مسلما . وقد تعادى القناصل في منح هذه الحماية تدعيما لمركز دولتهم ولمصالحهم مقابل مبلغ رهيب يدفعه طالب الحماية الى القنصل فينال الطالب براءة بحمايته مدى الحياة . ثم اصبحت البراءة تشمل عائلة المحمي بكاملها وبعد ذلك اصبحت وراثية واحيانا قابلة للانتقال وهكذا لم تصبح الامتيازات خاصة بالمسائل القضائية بل اصبحت وسيلة في ايدى الدول لاكتساب الانصار ودعم النفوذ .

وقد بدأ هذا الامر ببيع خدام القنصليات و براءات حمايتهم لغيرهم ممن يود التخلص من سلطان الحكومة بوضع نفسه تحت جناح سفارة اجنبية ، ولكن ما لبث السفراء والقناصل انفسهم ان صاروا يبيعون البراءات التي يسلمهم اياها الباب العالي بشأن اتباعهم ثم صار القناصل والسفراء يصدرون البراءات للحماية من تلقاء انفسهم [٥] .

---

(١) براون ٩٣ — ٩٤

(٢) عازوري ، نجيب ؛ " يقظة الامة العربية " باريس ١٩٠٥ . ص : ١١٧

(٣) غالب ، ٩٦

(٤) سوسه ١٠٠ — ١٠١

(٥) جيمس ، فان دين ستين دو ؛ " الوضع القانوني للرعايا العثمانيين غير المسلمين " بروكسل ١٩٠٦ . ص : ٥٠٣

السعي للحد من الحمايـة

حاول نابوليون الاول سنة ١٨٠٦ ان يضع حدا لاعطاء البراءات بانكاره هذا الحق لممثلي فرنسا[١] لكن بقية الدول لم تتبع خطواته . وقد قرر الباب العالي سنة ١٨٠٧ بالاتفاق مع سفارة فرنسا الغاء هذه البراءات ، كما اضطر الى ارسال عدة مذكرات حول هذا الموضوع كمذكرة ٢٧ كانون الثاني سنة ١٨٥٢ الى ممثلي الدول الاجنبية في الاستانة ومذكرة ١٤ ايلول سنة ١٨٦٠ اليهم التي تحدد الانظمة التي قرر الباب العالي تطبيقها على هؤلاء المحميين فاما ان يغادروا البلاد خلال ثلاثة اشهر من تغييرهم جنسيتهم او ان يعودوا الى جنسيتهم القديمة وتطبق عليهم الانظمة العثمانية . وقد اسفرت هذه المذكرة عن تعيين لجنة مختلطة لمراجعة براءات الحماية[٢] .

وقد ارسل الباب العالي مذكرة اخرى في ٢٤ نيسان سنة ١٨٦٢ طالبا من الدول ان تحل بالاتفاق مع الباب العالي مسألة " نظام المحميين " فقبلت الدول ذلك ونشر بموافقتها نظام ٩ آب سنة ١٨٦٣ [٣] وفيه ان الحماية الاجنبية تمنح في المستقبل فقط للرعايا العثمانيين الذين يعملون :

أ — كموظفين قنصليين (المادة ٦)

ب — للترجمة والحراس في القنصليات (المادة الاولى)

جـ — لقيم وترجمان في كل ديراجنبي او ارسالية كنسية (المادة ٩)

ولكن هذا النظام حدد عدد المستخدمين العثمانيين الذين يحق للسفارات والقنصليات والاديار استخدامهم كما انه اصبح لا يجوز تعيين قنصل او نائب قنصل لاحدى الدول من الرعايا العثمانيين بدون موافقة الباب العالي . واصبحت الحماية لا تشمل عائلة المحمي ولا ورثته وتنتهي بانتهاء خدمته ، ولم يشمل هذا النظام ما قبله فابقيت للذين نالوا براءاتهم قبل صدوره امتيازاتهم وزاد عليهم هذا النوع من المحميين الموقتين السالفي الذكر[٤] .

واذا كان هذا القانون قد اوقف قليلا ازدياد المحميين فانه زاد عدد العثمانيين الذين استحصلوا على جنسيات اجنبية مما جعل عدد المحميين والمكتسبين للجنسيات الاجنبية من العثمانيين يفوق عدد الاجانب انفسهم[٥] ، وهذا ما اضطر الحكومة العثمانية الى اصدار قانون نيسان سنة ١٨٦٩ الذي

---

(١) سوسه ١٠١ — ١٠٢
(٢) المصدر السابق نفس الصفحات
(٣) تسط المجلد الاول ٢٢٨
(٤) سوسه ١٠٣
(٥) جهي ٥٠٣

حظر على الرعايا العثمانيين والمقيمين منهم في اراضي السلطنة خاصة تغيير جنسيتهم بدون موافقة الباب العالي ، كما اعتبر " كل شخص يسكن الاراضي العثمانية عثمانيا ويعامل على هذا الاساس حتى يثبت صفته الاجنبية بشكل نظامي " (١) .

وهكذا اخذت الحكومة العثمانية تشعر بحقها في فرض انظمتها على رعاياها وسعت لتقليص التدخل الاجنبي الذي كان يستعين بهؤلاء الرعايا المحميين او الذين يمنحهم جنسيته لتعزيز نفوذه وبسط سيطرته ولزيادة واردات القنصلية بما يدفعه المحمي من رسوم قنصلية (٢) .

ولكن هؤلاء الاجانب مع محميهم كانوا منهلا كثروا محدودي العدد فلجأت بعض الدول الى ادعاء حماية طوائف عثمانية بكاملها كما عملت فرنسا بشأن الكاثوليك (٣) بينما اجبرت غيرها الباب العالي على ان ينص في معاهدات دولية على حقها في حماية طائفة معينة ، كما عملت روسيا المنتصرة سنة ١٧٧٠ حينما ارغمت تركيا ان تعترف في صلح كوچك قينارجي بحق روسيا في حماية الروم في الامبراطورية العثمانية (المواد ٧ و ٨ و ١٧) ثم جددت هذا الشرط في معاهدة بوخارست سنة ١٨١٢ ومعاهدة ادرنه سنة ١٨٢٩ ، واما حرب القريم سنة ١٨٥٤ فقد نشبت لان تركيا ارادت ان تتملص بتشجيع من فرنسا وانكلترا من هذا القيد (٤) .

حماية فرنسا للكاثوليك

يقول بعض الكتاب الفرنسيين ان حماية فرنسا للكاثوليك تستند الى الامتيازات (٥) وقد مررنا في صفحات سابقة من هذا البحث باهم بنود الامتيازات فلم نر اى مادة تخول فرنسا هذا الحق وانما وجدنا ان رعايا ملك فرنسا ورعايا الامراء اصحابه يمكنهم زيارة الاماكن المقدسة تحت حماية فرنسا وواضح ان هذا لا يعني اى حماية للكاثوليك البلاد كما ان حماية فرنسا لرجال الدين الاجانب الكاثوليك لا يخولها حق التدخل في شؤون الطوائف المحلية . فالى اى شيء استندت فرنسا في ادعاءاتها هذه التي دعمتها ببعض عرفات معظمها السياسيين لدى الباب العالي (٦) ؟

لقد استندت الى الصداقة التي قامت في بادىء الامر على اساس المصالح السياسية المشتركة ، وكصديقة

---

(١) جهي ٥٠٦
(٢) ماسون (القرن الثامن عشر) ١٦٧
(٣) براون ٩٣
(٤) سياسي قديم ٢٥٩ — ٦٠
(٥) ريستلهوبر ٧٨
(٦) رودرد ٢٠

للباب العالي كانت تلفت نظره الى بعض المعاملات الشاذة التي كان يجريها الموظفون الاتراك مع بعض المسيحيين .

ولم تغب هذه الحقيقة عن بعض المنصفين من الذين درسوا المسألة وطبقوها امثال القنصل فير فهو يشهد " ان الامتيازات ليست الاساس لحق فرنسا في حماية المسيحيين المنتشرين في الامبراطورية العثمانية فقد ولكن الضمانات الممنوحة في مناسبات مختلفة تكررها من السلاطين ، اصبحت عرفا سائدا واتخذت في البلاد سلطة شبه قانونية " (١) كما ان ريستلهوبر نفسه يعود عن خطأه في الصفحة ١١٦ من كتابه .

المسيحيون في تركيا

والان هل كان المسيحيون في الدولة العلية يحتاجون الى حماية ؟ ان من يدرس تاريخ الدولة العثمانية يرى انها طبقت في اراضيها نظام الذمة وسمته " نظام الملة " . وقد كانت هناك ثلاث عشرة ملة معترف بها من الباب العالي سنة ١٩١٤ لكل منها بطريركها او رئيسها وهو مسؤول عنها تجاه السلطان(٢) وقد كان هؤلاء الرؤساء في الغالب يجمعون الضرائب من ابناء طائفتهم ، ومن اهم الامتيازات التي تمتعوا بها حق انشاء محاكم خاصة مستقلة للنظر في قضايا الاحوال الشخصية وبعض القضايا المدنية . وكان لهم ايضا حق استعمال لغتهم الخاصة وانشاء المدارس والمؤسسات الدينية وغير ذلك .

على ان هذه الضمانات لم تمنع من اذلال هؤلاء الذميين (٣) . والغالب ان ذلك كان نتيجة الاحقاد والعصبيات التي نتجت عن الحروب الصليبية . وتجاه هذا الواقع المؤلم اتجهت انظار المسيحيين الى قوة يمكنهم الاعتماد عليها لشد ازرهم . اما الدول الاوربية فاتخذت ذلك ذريعة لمد اصابعها وللضغط على الحكومة التركية للمساواة بين رعاياها . وهكذا بدأت حركة الاصلاح الاجتماعي بالتنظيمات المعروفة " بخط شريف كلخانه " الذي اصدره السلطان بتاريخ ٣ تشرين الثاني سنة ١٨٣٩ (٤) . وقد نص على المساواة بين الرعية وعدم مطلقية احد الا بعد محاكمة علنية وفقا للشرائع والنظم ، وبتأمين الرعية على شرفها وممتلكاتها وعرضها ، كما يعد بالشروع بتنظيم قانون عادل للضرائب وللخدمة العسكرية .

---

(١) فير ١٣١ (٢) سوسه ٨٩

(٣) مشاقة ، الدكتور مخائيل ؛ " كتاب مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان " مصر ١٩٠٨ .
منشأه : ملحم خليل عبدو واندراوس حنا شخاشيرى . ص : ١٥٧

(٤) شيرف ؛ " الاصلاحات وحماية المسيحيين في تركيا بين سني ١٦٧٣ — ١٩٠٤ " باريس ١٩٠٤
ص : ١٧ — ٢٤

ان هذا التنظيم بقي حبرا على ورق فقد كانت الدولة العثمانية آنذاك في درجة من الانحطاط والتفسخ بحيث لم تستطع ان توفق بين حاجات البلاد الاصلاحية وبين تسلط رجال الدين الجامدين الذين ظلوا ثائرين على هذه الاصلاحات وجابهوها وكان نفوذهم اقوى من نفوذ الحكومة فنامت المشاريع . ولكن تطور العدنية وتفتح الشعوب في المملكة العثمانية اضطر الباب العالي ان يقرر في ٩ ايار سنة ١٨٥٥ (١) اشتراك جزء من المسيحيين في الخدمة العسكرية ، وكانوا قبلا محرومين من هذا الواجب ، على ان يدفع الباقون بدل الاعفاء وجاء في هذا القرار انه يحق للمسيحيين الذين يظهرون براعة في جنديتهم ان يترقوا ويصبحوا ضباطا .

ولما انعقد مؤتمر باريس بعد حرب القريم لاحظ مندوبو الدول ان الاصلاحات لم تنفذ فارغموا السلطان على اصدار تأكيد لها وسمي هذا المنشور " بالخط الهمايوني " وذلك بتاريخ ١٨ شباط سنة ١٨٥٦ (٢) وفيه تأكيد لتنظيمات " خط شريف كلخانه " . وقد عدل فيه نظام الملة فاصبح لكل طائفة مجلس مختلط من رجال الدين والمدنيين بعد ان كان وقفا على الاولين ويعد السلطان في هذا المنشور بايجاد مصارف وتحسين حالة الطرقات والري كما يعلن عن عزمه على تنظيم ميزانية للدولة .

يكاد الغربي يظن ان المسيحيين وحدهم تحملوا عبء الظلم والمعاملة الشاذة مما دعا الدول المسيحية للعطف عليهم وحملهم برعايتها ، بينما تمتعت بقية الطوائف بالعدل والراحة والكرامة . والحقيقة ان كل الطوائف كانت تنال نصيبها الوافر من الفوضى والظلم . واذا قيس حال المسيحيين في الدولة العثمانية بحال الاقليات الدينية في اوربا نفسها نجد ان مسيحيي تركيا كانوا احسن حالا على الاجمال ويكفي ان يدرس احدنا وضع اليهود في مختلف بلاد اوربا ليقتنع بصدق هذه النظرية .

لقد تحسنت احوال الاقليات في اوربا بتحسن الوضع العام في البلاد التي يقطنونها ، اما في تركيا فان البلاد شارفت القرن العشرين وهي لا تزال غارقة في نومها بعيدة عن اللحاق بركب العدنية ، ومن الطبيعي في بلاد متأخرة ان يسعى الاقوياء من الاجانب لخلق حالة يبررون بها تدخلهم ، فيصح لهم كسفار جحا ، ولم يكن اسهل عليهم من استغلال سذاجة هؤلاء المسيحيين من العثمانيين باسم حمايتهم من جور السلطة الحاكمة ، ليتمكن الاجانب " من التدخل في شؤون البلاد الداخلية " (٣) بهذه الطريقة " التي اوجدوها خصيصا لهذا الغرض " . ولا شك ان العواطف الطيبة لم تكن هي الموحية بهذه الحماية ولكنها الاغراض السياسية (٤) .

---

(١) شهوف ٣٥ — ٣٨ (٢) المصدر السابق ٤٨ — ٥٤

(٣) سياسي قديم ٢٥٩

(٤) ايكاريوس سلة ، اسكندر ، " لبنان في اضطراب ، سوريا والدول سنة ١٨٦٠ " نيو هيفن ١٩٢٠ ترجمة الى الانكليزية وعلق عليه وكتب له مقدمة وخلاصة : ج ف . شلتا . ص ١٧ من المقدمة .

وكما تعادى القناصل في منح براءات الحماية وقد ظلمهم على من يطلبها من الرعايا العثمانيين دون ان تخولهم الامتيازات اوحتى قوانين بلادهم شيئا من ذلك (١) تعادوا في استغلال هذه الحماية التي ظللوا بها بعض الطوائف .

حماية البدو

لم تكتف فرنسا بادعاء حماية الطوائف الكاثوليكية بل سعت الى ان تكسب ود قسم من البدو الضاربين في البادية السورية ، ولربما كانوا هم الذين رحبوا بهذه الصداقة وهذه الحماية ، ولا شك ان وراءها فوائد مادية للبدو والذين لا يفهمون الا هذه اللغة كما ان القنصل الذي يحتمون بدولته يصبح وسيطا لدى الوالي اذا ما وقعوا في ورطة . ويستدل من احدى رسائل قنصل فرنسا في دمشق لحكومته سنة ١٨٦٤ (٢) ان البدو مثل بقية السكان في سوريا ولبنان ينقسمون الى افرنسيين وانكليز . وان ولد علي وشمر والفدعان وبني صقر والموالي واجزاء من السباع وغيرهم يدعون انهم افرنسيون ، بينما الرولا واجزاء من السباع وغيرهم وعامة القباس وجميعهم على الضفة الشرقية للفرات وقرب بغداد فهؤلاء يعتبرون انفسهم انكليز . وتعود هذه القسمة الى ايام نابوليون الاول كما تعود الى المنافسة بين البدو من جهة وبين انكلترا وفرنسا من جهة ثانية في هذه البقعة من العالم .

دعائم الحماية

"اسس حماية فرنسا هي الدين ومصالحها في الشرق . والذي امن لها هذا المركز الذي تحجب منه غليوم الثاني هو اعمالها واعمال مرسليها ورجال دينها وليست مصالحها التجارية . فالحماية شيء معنوي ولا يمكن ان يبنى بقوة على مصالح مادية"(٣)

لقد اخطأ صاحبنا في حصر اسس الحماية في المسائل المعنوية من اعمال مرسلين ومبشرين وامثالهم وان كان ذلك من الدعائم القوية التي مكنت للحماية الفرنسية ان يشتد عودها في لبنان خاصة وسوريا عامة . ولكن يجب الا ننسى ان هذه العلاقات الثقافية لم تكن اول صلات فرنسا فلولا التجارة الفرنسية والعلاقات السياسية التي اوجدت الحماية لما تمكن المبشرون ان يتمتعوا بحريتهم ويسقوا هذه الغرسة لتنمو وتشتد وتصبح شوكة في ظهر السلطنة التي كانت صداقتها للاجانب وبالا عليها .

---

(١) غيو ١١٠

(٢) مجلة " الجغرافيا " المجلد ٦٤ العدد ٥ (باريس ١٩٣٦) مقال للسيد تريس ، ر . ص : ٢٤١

(٣) غالب ٢١٥

الـمـــوارنـــة

الموارنة محميون

قلنا ان فرنسا كانت تدعي لنفسها الحق بحماية الكاثوليك في الشرق ؛ واذا ذكرنا كاثوليك سوريا ولبنان الذين كانوا يتجهون صوب فرنسا فكأننا نذكر الموارنة بشكل خاص لانهم يشكلون اكبر كتلة كاثوليكية متجانسة في هذه البلاد . وقد عرف الفرنسيون ذلك واستغلوه كما سيمر معنا .

لقد اعتبر الكتاب الفرنسيون الموارنة " افرنسيي الشرق "(١) وقرروا ان " افكار الموارنة تتجه كلها نحو فرنسا وان مطمحهم خدمتها واملهم ان يصبحوا في يوم من الايام تابعين لها "(٢) ووافقهم الانكليز كتاب الفرنسيين على رايهم فشهدوا " ان الموارنة مستسلمون نفسا وجسدا الى فرنسا "(٣)

فلماذا هذا الاستسلام ؟

لا شك ان الموارنة القابعين في جبال لبنان لم يخضعوا تماما في يوم من الايام الى الحكومات العربية التي توالت على الحكم في هذه المنطقة التي استعربت بينما بقي بعض الموارنة حتى اواسط القرن السابع عشر محتفظين بلهجتهم السريانية . ولما جاء الاتراك اكتفى امراء الجبل بالوفود على السلطان سليم في دمشق وتقديم خضوعهم له فاعادهم الى امارتهم وابقى حكم الجبل على حاله ولم يجازف بتمثله .

ولكن الموارنة على العكس ساعدوا الصليبيين (٤) لما استولى هؤلاء على الساحل وقدم الموارنة لهم الادلاء والمؤن وساعدوهم بالرجال وخاصة لحملة القديس لويس (٥) آملين ان يتخلصوا من هذه الحلقة المفروضة حولهم من المسلمين . ولما فشلت الحروب الصليبية عاد الموارنة الى الانكماش على انفسهم في جبلهم حتى جاءت الامتيازات وعاد الفرنسيون الى السواحل بصفة تجار او مبشرين فالقواسكان جهال لبنان وكانهم جزيرة ؛ ورأى الفرنسيون امكان استغلالهم فما قصروا كما فعل هنري الرابع ولويس الرابع عشر اللذان ارسلا كتبا الى قناصلهم في الشرق (٦) بوجوب مساعدة البطريرك الماروني وابناء طائفته ونقل من يود من شبابهم " الذهاب الى ارض المسيحية " للتعلم او غير ذلك على المراكب الفرنسية وغيرها بكل لطف .

---

(١) فوغوي ؛ ملشوار دو ؛ " حوادث سوريا " باريس ١٨٦٠ ص : ١٣

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة

(٣) « مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنة ١٨٤٠ — ١٨٦١ " تعريب فيليب وفريد الخازن . ٣ مجلدات ؛ جونيه ١٩١٠ — ١٩١١ مجلد ١ ص : ٧٣ فقرة من تقرير الكولونيل روز بتاريخ ١ تشرين الاول سنة ١٨٤١ .

(٤) غالب ١٦٩ (٥) لونوريان ؛ فرانسوا ؛ " تاريخ مذابح سوريا سنة ١٨٦٠ " باريس ١٨٦١ . ص :

(٦) ريستلهبر راجع نص كتاب لويس الرابع عشر وتعليق المؤلف عليه .

وقد اعتبر الموارنة هذا الكتاب صكا لامتيازاتهم عند فرنسا (١) فتعلقوا بها اكثر من ذي قبل واتبعوا اوامر قناصلها حتى ان القنصل الافرنسي طلب من البطريرك الماروني ، عند خروج المصريين من سوريا على يد الانكليز والعثمانيين ، ان يصدر قرارا بتكفير الانكليز وحرمان من يساعدهم فما تأخر البطريرك عن ذلك (٢) .

بعض اتصالات الموارنة بفرنسا

ارسل قنصل فرنسا في حلب المسيو بيكي الاب سيافستر دوسانت اينيان ليحمل من الموارنة رسالة في طريقه الى فرنسا ليبلغها للسلطات الفرنسية ، وقد كلف القنصل البطريرك والشيخ ابا توفل الخازن ليكتبا عن الطائفة ، فعرض هذان لما يلاقيه ابناء طائفتيهما من العنت بسبب الضرائب الثقيلة من حيث كثرتها والاعتباط في فرضها من قبل الاتراك ، ويرى الكاتبان ان الوسيلة الوحيدة الناجعة هي تخليص البلاد من ادارة الاتراك وتسليمها للشيخ ابي توفل (٣) .

وفي عريضة قدمها الموارنة الى لويس فيليب ملك فرنسا بتاريخ ٢٢ اذار سنة ١٨٤٤ جاء ما يلي " ان حكومتكم متحققة انها ممثلة الشعب الماروني " (٤) . ويروي لنا المطران الفرنسي لوكدموس الذي زار سوريا سنة ١٨٨٨ واستقبله حينذاك البطريرك الماروني مسعد ، بعض التفاصيل عن هذا الاستقبال بعد ان يذكر تعلق البطريرك الشديد بفرنسا فيقول : " البطريرك الماروني ملك لبنان . هو شيخ في الثالثة والثمانين من عمره وقور وذو هيبة . واهم من ذلك كله صداقته للفرنسيين . لقد عبر لنا عن اخلاصه لفرنسا بتحمس جعل كلامه يؤثر في جدا ولاحظ ذلك فاخذ يدي ووضعها على قلبه ثم اضاف : " منذ ان عرف هذا القلب ، الذي تتهاطأ خلجاته بفعل السنين ان يحب شيئا فانه خفق بحب فرنسا . وكل من يحيطني ومن يطيعني في هذا الجبل يقول لك مثل ذلك . فكل ما تلقونه من مسرات يجعلنا نطير فرحا وكل ما يسيئكم يحزننا ويخجلنا . قل لفرنسا عن اخلاصنا وثباتنا في المحافظة على لقب افرنسي المشرق . فليس من شيء يمكنه ان ينسينا التقاليد العريقة التي تربطنا ببعضنا . وفي كل ساعة بالصلاة والامل والقلب نحن لكم " (٥) .

لم يكن البطريرك مبالغا على ما اعتقد فان قدوم بونابارت الى حصار عكا " سر النصارى بقدوم

---

(١) ريستلهوبر ١١٨
(٢) " حسر اللثام عن نكبات الشام " (مجهول المؤلف) مصر ١٨٩٥ ص : ٨٠
(٣) ريستلهوبر ١٢٣ (٤) المحررات السياسية الجزء الاول ، ١٢٩
(٥) ميليا ، جان ، " عند مسيحيي المشرق " باريس ١٩٢٩ ص : ١٦٨

الفرنسويه " (١) . كما ان الموارنة كانوا " اعوانا لقناصل الفرنسيس يعاونونهم على مد نفوذهم ويجاهرون بالانتماء الى الدولة الفرنساوية حتى انهم كانوا يعلنون الجبل زينة كلما زاره احد قناصل هذه الدولة وجعلوا يقدمون له قضاياهم ويحكمونه في امورهم بدل عمال السلطان ... " (٢) وذلك بعد حرب القريم .

فلما سارعت فرنسا بارسال حملتها العسكرية بعد حوادث الستين قرنت الاقوال بالافعال في نظر الموارنة واصبح ذكرها ينتقل من اب الى ابنه في ذلك الجبل (٣) حيث اعتنوا بلغتها واعتزوا بحمايتها وكم كان بودهم لو بقيت الجنود الفرنسية محتلة بلادهم (٤) .

وفي الحرب العالمية الاولى دفع الشيخان فيليب وفريد الخازن رأسيهما ثمنا لتعلقهما بفرنسا ، وقد كان الاول ترجمانا لقنصلية فرنسا في بيروت بينما كان الثاني ينشر نفوذ فرنسا بواسطة الصحافة السورية (٥) والشيخان هما من العائلة الخازنية التي قدمت بضعا من رجالها لتمثيل فرنسا في بيروت في النصف الاول من القرن الثامن عشر كما زار بعض افرادها باريس في ذلك الحين (٦) .

وهذه العلاقات دعت جان ميليا الى القول ان الموارنة رغم كونهم جغرافيا وتاريخيا جزءا من سوريا او منطقة سورية تتمتع بامتيازات كبيرة ، وكونهم خاضعين لسلطان القسطنطينية ، فان تعلقهم هو بفرنسا وبهم تستعين فرنسا ، سياسيا ، لتوسعها الفكري في الشرق (٧) .

الموارنة والانكليز

قدمنا ان الموارنة كانوا يحبون فرنسا ويتعلقون بها اما الانكليز " فكان كره الموارنة لهم بقدر محبتهم للافرنسيين " (٨) . ويحاول بوجولا ان يعلل هذا الكره بسعي الانكليز لتحويل الموارنة عن كثلكتهم الى البروتستانتية . واذا كان قد اصاب في تقريره كره الموارنة للانكليز فقد اخطأ الاسباب الرئيسية وتعلق بسبب ثانوي . فالموارنة يكرهون الانكليز لان هؤلاء ينافسون الفرنسيين

---

(١) الشدياق ، طنوس ؛ " اخبار الاعيان في جبل لبنان " بيروت ١٨٥٩ . ص : ٤٤٩
(٢) حسن اللئام ١٢٩ (٣) فرني
(٤) المحررات السياسية المجلد الثالث ١٠٣ (٥) ريستلهوبر ١٨٢
(٦) ماسون (القرن الثامن عشر) ٥١٩ (٧) ميليا ١٦٧
(٨) بوجولا ، باتيستان ؛ " قصص وذكريات لرحلة في الشرق " الطبعة الحادية عشرة ، تور ١٨٨٣ . ص : ١٣٢

والفرنسيون اصدقاء الموارنة وهكذا فعدو صديقي عدوى ، كما ان تقاصل فرنسا الذين علموا اثر الدين في توجيه نفوس هذه البلاد استغلوا هذه الناحية كما مر معنا فاوعزوا الى بطريرك الموارنة بتكفير الانكليز " فاعلن ان الانكليز اكفر الكافرين وحرم كل واحد يختلط بهم اقل اختلاط وقال باطلاع عيني كل نصراني يرى بعينيه مراكبهم ... وصار تقصل فرنسا من ناحية والبطريرك من ناحية اخرى يحثون الناس على كره الانكليز وكل من والاهم " (١) .

وتجاه هذا الموقف العدائي من الموارنة " لم يبق لانكلترا ان تختار في الامر بل امسى من المتحتم عليها عضد الدروز " (٢) لتأمين قلة ترتكز عليها في تحقيق سياستها في هذه البقعة من العالم التي تهمها لانها على طريق الهند . واتخاذ الانكليز للدروز انصارا زاد في عداوة الموارنة لهم لان الدروز بنظرهم كفار (٣) .

على ان هناك سببا آخر يبدو لي انه قد يكون له اثر بعيد في توجيه هذا الكره وهو اهتمام انكلترا بشؤون السلطنة العثمانية والدفاع عن سلامتها ، وحلول مبعوثيها السياسيين في تلك المرتبة المفضلة التي كان يتمتع بها الفرنسيون وحدهم من قبل ، وكره الموارنة للاتراك ربما جعلهم يكرهون من يواليهم .

على انه لا يمكن تجاهل السبب الذى قدمه بوجولا خاصة والموارنة متعصبون فانهم لم يقتصروا على معاندة الدروز " ولكنهم حاولوا قتل كل من لم يكن على معتقدهم فاغروا الامير بشيرا على قتل مدارس الانكليز والاميركان في الجبل ومع ان نعمان بك جنبلاط سار الى بطريركهم ورجاه ان يساعده على ابقاء هذه المدارس لنفع الاولاد من الطائفتين فلم يقبل بغير ما رآه . وكان يومئذ مطران بيروت الماروني عند البطريرك فقال لنعمان بك انه سوف يبطش بكل درزى ويخضع كل هرطوقي عن قريب لارادته ..." (٤)

ومطران بيروت الماروني حينذاك كان المطران طوبيا عون الذى ورد اسمه كثيرا في كتب التاريخ بمناسبة الحديث عن مذابح الستين التي سنفرد لها مقطعا خاصا ، وكان يرأس اللجنة المارونية التي اتهمها خورشيد باشا والي صيدا بالتحريض على الثورة . وهذه اللجنة التي يقول عنها شاهد عيان (٥) انها انشئت في تلك الظروف تقليدا للجنة الامن العام الفرنسية بعد الثورة وانها كانت مجرد دعايات

---

(١) حسن اللئام ٨٠ راجع ايضا ص ٧٢ من نفس المصدر
(٢) المحررات السياسية الجزء الاول ٧٣ (٣) بوجولا ١٣٤
(٤) حسن اللئام ٧٨ (٥) "ذكريات من سوريا" لشاهد عيان باريس ١٩٠٣ ص : ٣٠

فارغة دون اعمال ومع ذلك فقد اثرت في خلق التوتر وسهلت اتهام الموارنة بتدبير العدوان .

الاكليروس الماروني

كان للدير ورجاله في القرن التاسع عشر سلطة كبيرة على النفوس في سوريا ولبنان لا تزال آثارها حتى اليوم رغم انتشار العلم والمدنية الغربية . وكان الاكليروس اللبناني يتقاسمون السلطة في طائفتهم مع رجال الاقطاع . فللاولين السلطة الدينية الروحية وللآخرين السلطة الدنيوية المادية . وكان الفريقان على وفاق اجمالا ولكن منذ سنة ١٨٤٢ بدأ الاكليروس في التدخل في الشؤون السياسية (١) " ولما رأت طبقة الاشراف (٢) المسيحية مزاحمة البطريرك والاساقفة لهم ازدادوا تمسكا بحقوقهم محافظة على الاولية كما ان رجال الدين لما رأوا ما لهم من النفوذ في الاهالي طمعوا باحراز حكم الجبل " (٣) وسعى الاكليروس لجمع السلطتين الدينية والزمنية كان له اسوأ النتائج اذ قام الاكليروس يشجعون الناقمين على اهل الاقطاع لطرد هؤلاء من اقطاعتهم (٤) وقد طرد العصاة وعلى راسهم طانيوس شاهين مشايخ آل الخازن وحكموا المنطقة وتمادوا في الشر بتشجيع المطران طوبيا وبعض اخوانه من الاكليروس (٥) .

وقد رأى قنصل فرنسا ان " الاكليروس لعب في هذه الحركات دورا غير مطابق لمهمته السلمية طمعا بالسلطة واخذ مقام الاشراف واستلام دفة الشؤون لكن طبيعة الاشياء ذاتها ومقاومة قلة الاشراف وسلوك الحكومة التركية الرامي الى اضعاف فريق بواسطة الاخر كل ذلك احبط مساعي الاكليروس بحيث فقد الاكليروس والاشراف معا سلطتهم على الشعب وعجزوا عن كبح جماحه وتولي ادارته " (٦).

ولكن من الذي كان يحرض الاكليروس انفسهم ؟ ان احد المطلعين يتهم فرنسا بالاتصال بالاكليروس وتحريضهم على الثورة ضد المشايخ كما يظهر من كتاب الخوري عبد الله الى طانيوس شاهين (٧) ومن اخبار طانيوس شاهين للخوري يوحنا بان قنصل فرنسا ينتظر مشاهدته (٨) .

وهكذا نجد اصابع فرنسا تمتد الى الموارنة فان لم تستطع مساعدتهم فعلى الاقل ان تثبت وجودها

---

(١) المحررات السياسية الجزء الثاني ٩٨ — ٩٩ (٢) اصحاب الاقطاع
(٣) المحررات السياسية الجزء الثاني ٩٨ — ٩٩
(٤) كرم ، بطرس بشارة ، " قلائد المرجان في تاريخ شمالي لبنان " بيروت ١٩٣٢ . راجع في ص ١٤٣ مذكرة يوسف بك كرم التي رفعها الى الكنيسة المقدسة وفرنسا — وراجع ايضا المحررات السياسية ج ٣ الجزء الثالث ١٣٧ . (٥) المحررات السياسية الجزء الثالث ٢٥١ (٦) المحررات السياسية الجزء الثاني ٩٩ (٧) العقيقي ، انطون ظاهر ، " ثورة وفتنة في لبنان " صفحة مجهولة من تاريخ الجبل من سنة ١٨٤١ — ١٨٧٣ بقلم معاصر عاش فيها . نشرها وشرحها وعلق حواشيها يوسف ابراهيم يزبك . بيروت ١٩٣٦ . ص . ١٨٤ (٨) المصدر السابق ١٨٨

بعض التعريفات .

تسفير الكاثوليك لفرنسا :

نالت فرنسا بموجب الامتيازات حق حماية القبر المقدس ولهذا فان ممثليها وحدهم كانوا يتمتعون بحق الظهور في احتفالات القبر المقدس حاملين شاراتهم الرسمية وعلى جانبهم السيف (١) واعترافا من الكاثوليك في الشرق بفضل فرنسا وحمايتها ادخلوا في طقوسهم بعض التشريفات لممثلي الامة الحامية . فكان يقام بعد عيد الفصح من كل عام قداس قنصلي في كنيسة الابرشية لكل طائفة كاثوليكية تحفظ في هذا القداس مقعد الشرف لرجال القنصلية الفرنسية الذين يحضرون بالبستهم الرسمية ، وبعد القداس يجرى استقبال على شرفهم يتقدمهم فيه الاسقف ووجهاء الطائفة بشكر القنصل وتقديم امانيهم له (٢).

السياسة الفرنسية

بين المد والجزر

لم تكن السياسة الفرنسية تشكل كلا قائما بذاته بالنسبة لسوريا ولبنان بل على العكس كانت تتبع تطورات السياسة الفرنسية تجاه السلطنة العثمانية . فاذا ما ساد الصفاء علاقات الدولتين العثمانية والفرنسية وجدنا اسهم السياسيين الفرنسيين في سوريا ولبنان ترتفع وعلى العكس عندما يعكر الجو نوع من سوء التفاهم تهبط اسهمهم واسهم محميهم .

لقد نشأت العلاقات كما قدمنا على اساس الصداقة المتبادلة لدرء خطر عدو مشترك هو النمسا . وقد لاحظ متتبعو هذه الصداقة انها بدأت تفتر في اوائل القرن السابع عشر (٣) فلما تحالفت فرنسا مع النمسا سنة ١٧٥٦ اساءت تركيا الظن بفرنسا وحرضها على ذلك السفير البريطاني (٤) — ويجب الا ننسى ان بريطانيا بقيت الخصم العنيد لفرنسا في مسائل الشرق الادنى حتى ايامنا هذه — وجاءت انكسارات فرنسا برا وبحرا في حرب السبع سنوات بعد تحالفها السابق الذكر فزادت في اضعاف

---

(١) فرني ٧٨ (٢) غالب ١٦٤
(٣) ماسون (القرن السابع عشر) ٥٢٠ (٤) ماسون (القرن الثامن عشر) ٢٦٥

مركزها لدى الباب العالي (١) فاحتل الروم الارثوذكس كنيسة القبر المقدس وزادت الضرائب الاحتياطية في الشغور على محميي فرنسا خاصة ، حتى اضطر قنصلها في صيداء سنة ١٧٥٩ المسيو كليرامبو ان يكتب للسفير الفرنسي في القسطنطينية "ان الحماية الفرنسية التي كانت قبلا مشرفة اصبحت مهينة وباهظة الكلفة لمن يلجأ اليها" (٢).

وساءت العلاقات مرة ثانية يوم هجم نابوليون بجيشه على مصر سنة ١٧٩٨ فاعلنت تركيا الحرب على فرنسا بتحريض الانكليز — طبعا — ، ولكن المياه عادت الى مجاريها بالاتفاق الذي عقده نابوليون الاول سنة ١٨٠٢ حيث اعترفت الدولة العلية بكل الامتيازات السابقة للفرنسيين .

الطمع في الدولة العثمانية

لقد اصبح ضعف الدولة العثمانية جليا منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر ولكن الاطماع الاجنبية لم تتمكن من الاتفاق على توزيع اشلاء " الرجل المريض" وهذا الاختلاف هو الذي هد في عمره . فروسيا تريد الاستيلاء على المضايق ولكن هذا الاستيلاء يهدد مصالح بريطانيا في امبراطوريتها في الهند ، فوقفت سدا منيعا في وجه التوسع الروسي وتمكنت من اقناع غيرها من الدول بان مصالحهن تقتضي مساعدتها والمحافظة على سلامة السلطنة العثمانية . واقتنعت فرنسا بالامر ونادت بمبدأ السلامة مع منافستها .

وقد سجل هذا المبدأ في اتفاق عقد في باريس سنة ١٨٥٦ بعد حرب القرم وتعهدت فيه الدول الموقعة باحترام سلامة الامبراطورية العثمانية وضمانها واجازوا لتركيا التمتع بجميع امتيازات القانون الدولي بوصفها عضوا في مجموعة الدول الاوربية (٣). ورغم هذه الاتفاقية فقد بقيت بعض الاقلام الفرنسية تطالب بالاستفادة من حطام هذه الامبراطورية الضخمة . وطالما ان تامين التجارة كانت هدف الصداقة التركية الفرنسية فالافضل ان تضع فرنسا يدها على مصر او سوريا (٤) دون ان تهتم ببقية الاجزاء . وراى كاتب اخر بعد تحدثه عن مذابح الستين ان بقاء الامبراطورية العثمانية عار في جبين اوربا المتمدنة

---

(١) ماسون (القرن الثامن عشر) ٢٦٧ (٢) المصدر السابق نفس الصفحة

(٣) بروكلمان ، كارل ، " تاريخ الشعوب الاسلامية " تعريب الدكتور نبيه امين فارس ومنير البعلبكي في خمسة اجزاء ، بيروت سنة ١٩٤٨ — ١٩٥٠ الجزء الرابع ص : ٤٧

(٤) دريو ، ادوار ، " المسألة الشرقية " باريس ١٩٠٥ . ص : ٣٨٣ وما بعدها (الطبعة الثالثة) و ماسون (القرن الثامن عشر) ٢٧٣ .

" لان الامة التركية متوحشة يسود فيها الاغتيال وقتل الاخ لاخيه في سبيل الحكم ولذلك لا يمكن اصلاحها "(١).

اما الحكومة الفرنسية فلم ترَ من صالحها ان تأخذ برأي هؤلاء الكتاب فاحترمت تعهداتها ، لان مصالحها تقتضي ذلك ، ورأت في المساس بسلامة السلطنة بذور مشاكل متعددة اوربية وربما اختلافا عاما(٢) فكان الانسب ان تأخذ الدول الاوربية بيد السلطنة في طريق الاصلاحات الداخلية التي اعلنت عنها .

فرنسا ايام محمد علي باشا في سوريا

شذت فرنسا عن بريطانيا ايام محمد علي باشا في سوريا فيما يتعلق بمبدأ سلامة السلطنة وكانت الدولة الوحيدة التي ايدت محمد علي باشا فاوعى هذا التأييد بثمرة جهوده لان بريطانيا لا تريد ان ترى دولة قوية على طريق الهند حليفة لمنافستها . وكذلك روسيا لم يعجبها ان تقوم دولة فتية قوية تقضي على مطامعها في تركيا . لكن قناصل فرنسا في سوريا وخاصة قنصلها في بيروت لم يتقيدوا بسياسة حكومتهم — ولعلهم كانوا يتلقون تعليمات سرية تبرر سلوكهم — بل راحوا يشوشون على المصريين في سوريا وخاصة في آخر ايام ابراهيم باشا في هذه البلاد فيدبرون المشاغبات المسلحة (٣) ويشجعون الاضطراب " ليمهدوا للاعمال التي يعملون على تحقيقها في المستقبل ولترجيح كفتهم في سياسة الاستانة على كفة موسكو "(٤).

وقد شكا محمود نامي بك الى ابراهيم باشا من قنصل فرنسا في بيروت قائلا ان جميع اعمال القنصل المذكور تخل بالعلاقات التي تربط فرنسا بمصر فهو يدافع عن بطريرك الموارنة ويحمي الاشقياء ويرسل البحارة الفرنسويين الى عينطوره للدفاع عن مدرستها ... " ولا ينفك عن اختلاق الدعاوى الظريفة فيحطل على خادمكم مصالحه "(٥). ولما قرر اللبنانيون الامتناع عن دفع الضرائب كان القنصل دوفرنوا الافرنسي يرشد الموارنة ويشير عليهم (٦). ويظهر من هذا كله ان فرنسا كانت مهتمة بتأمين نفوذها في سوريا ولبنان لا بدعم سياسة محمد علي باشا او غيره .

فرنسا بعد خروج ابراهيم باشا من سوريا

لقي الافرنسيون انفسهم وقد خذلوا مرتين اولاهما عندما حاول نابوليون الاول احتلال هذه البلاد العربية ، وثانيتهما في محاولة محمد علي باشا وكانت فرنسا كما قدمنا تتظاهر امام الدول بتأييده .

---

(١) " الموارنة وفرنسا " (مجهول المؤلف) باريس ١٨٦٠ . ص : ٢٥
(٢) فرنسي ٧٦
(٣) " المحفوظات الملكية المصرية " ، اجزاء ، نشر الدكتور اسد رستم بيروت سنة ١٩٤٠ — ١٩٤٣ . الجزء الرابع ص : ٣٨٣ (٤) المصدر السابق ٣٦٨
(٥) المصدر السابق ٤١٧ — ١٨
(٦) سامنى ، الدكتور جورج ؛ " سوريا " باريس ١٩٢٠ ص : ٤٧ — ٨

وفي كلتا المحاولتين كان الانكليز بالدرجة الاولى هم الذين جعلوها تفشلان لهذا راحت فرنسا " ان تعمل على تقوية حبيبها وزيادة نفوذها توصلا الى امتلاك البلاد بقوة هذا الحزب وساعدته في احد الايام ولما كان الموارنة ينتمون اليها وهم تحت حمايتها ... صار تواصل فرنسا يزدهر ويجيئون الى دار البطريرك الحاوي ويخابرونه في ما يريدون واوصلت اليه الدولة الافرنسية في ذلك الحين نصف مليون فرنك ليتفقه في سبيل غاياته وغاياتها . وكان ارسال هذا المال على طريقة علنية فجعل الموارنة يفتخرون بالامر ويتباهون بمساعدة فرنسا لهم ويقولون انهم سوف يحققون الدور بحمايتها (١) " .

بالرغم من هذه المساعدات والاتصالات يعترف السير غرو نفسه وهو وزير خارجية فرنسا آنذاك في كتاب بتاريخ ٦ شباط سنة ١٨٤١ ارسله الى السير بوجاد قنصل فرنسا في بيروت : بان نفوذ فرنسا السياسي قد تضرر في سوريا عموما واهالي لبنان الكاثوليك خصوصا " من جراء الحوادث التي انتابت القطعة السورية (٢)" . فقد ادرك هذا السياسي ان القوة تهيمن الامن وتؤثر في العمل في هذا الشرق ولكنه مع ذلك لا يزال يثق بصداقة كاثوليك سوريا ولبنان ويطلب تقوية هذه الصداقة ، ولربما كانت صلة فرنسا للبطريرك الحاوي لاحقة لهذا الكتاب لا سابقة له لانه يهتم جدا بموارنة لبنان .

فرنسا والشهابيون

لما خرج ابراهيم باشا من سوريا استسلم حليفه الامير بشير قنطاقه دارة انكليزية الى مالطة ثم نقل الى الاستانة . وقد اصرت الدولة العلية على تنحية الاسرة الشهابية برمتها عن الحكم كما يتضح في التصريحات التي ادلى بها ناظر خارجيتها لسفراء الدول في الاستانة (٣) . لكن فرنسا بقيت تدعم هذه الاسرة وتطالب بعودتها الى الحكم (٤) بل بعودة الامير بشير نفسه الى لبنان . فلما تولى الامير بشير احمد الشهابي فالمقاطعة التساوي ضده كقنصل فرنسا " بخلاف قنصل دولة الانكليز فانه كان يريد عزله (٥) " . وهذا الموقف معقول من فرنسا لانها تريد ان يكون الامير مسيحيا ماروني من اتباعها .(٦)

سياسة السياسة التقليدية

بقيت فرنسا تتابع الاهتمام بشؤون الكاثوليك في سوريا ولبنان فتدخلت لدى الباب العالي

---

(١) حسن اللقاء ٧٤ — ٧٥ (٢) المحررات السياسية الجزء الاول ص : ٤٩
(٣) المحررات السياسية الجزء الاول ص : ١٠٦
(٤) نفس المصدر ١١٣ (٥) العقيقي ٦٧
(٦) المحررات السياسية الجزء الاول ص : ١١٩ ، راجع ايضا في نفس المصدر خطاب السيوطي طفيل في مجلس النواب الفرنسي بتاريخ ١٥ حزيران سنة ١٨٤٦ . ص : ٢٤٢ — ٢٦٢

سنة ١٨٤٣ لما الحقت جبيل بطرابلس " لان المسألة محصورة بالشؤون المسيحية البحتة " (١) وهذا كاف بنظر سفيرها للتدخل في القضية . وكذلك اهتمت بهو٫لاء المواونة اثر اضطرابات سنة ١٨٤٥ (٢) ولكن اهتمامها لم يفد شيئا . فارادت ان تظهر سطوتها وقد توفر لها ذلك اثر سجن ترجمان قنصلية فرنسا في بيروت في جونيه . فطالب القنصل بالافراج عن ترجمانه ، فلم يستجب طلبه فما كان منه الا ان ارسل الدارعة " لا بيل بول " التي انزلت فصيلة من بحارتها بالسلاح في جونيه ففتحوا باب الحبس واخرجوا الترجمان واعادوه الى بيروت (٣) .

قناصل فرنسا بعد حرب القرم

مر بنا ان المواونة ازدادت حماستهم لفرنسا بعد حرب القرم التي خسرت فيها تركيا اولا ثم استرجعت كل ما فقدته بفضل تدخل فرنسا وانكلترا وغيرها من الدول ، فاصبحت الدولة العثمانية كالقاصر وهذه الدول كالاوصياء عليه . اذ لم يعد للسلطنة حول ولا طول واصبحت المحافظة عليها رهنا بمشيئة الدول التي كفلت سلامتها .

تجاه هذا الواقع الم يكن من الطبيعي ان يزداد قناصل هذه الدول اهمية في نظر العثمانيين ؟ هذا معقول ولكن الشيء الجديد هو ان قناصل فرنسا اصبحوا " يكثرون من المراقبة والتشديد والضغط على الحكام الاتراك من بعد تلك الحرب ويظهرون القوة والاقتدار ويغيظون الحكومة التركية في كل امر حتى ان قنصلهم في بيروت كان يحتم على المسلمين الوقوف له كما يقفون للوالي عند مرور عربته بهم فاذا لم يقفوا له نزل من العربة وجعل يجلدهم بسوطه جلدا ويشتم اعز الامور عندهم ويكثر من احتقارهم ... وصار السيور دي لسبس قنصل فرنسا في بيروت وقتئذ يستدعي اكابر المسلمين والدروز والنصارى الى بيته فيأمر فيهم وينهي ويحكم في قضاياهم على ما يريد ويهوى ويظهر للناس بكل واسطة انه مراقب على حكومة السلطان وان قوة الدولة صارت كلها الى قبضته ولطالما القى اناسا في السجن وافرج عن اناس ونقل الارزاق من رجل الى خصمه وحمى اصغر الخادمين في بيته من الحكام ولو انه ارتكب اعظم الجرائم" (٤)

ولكن هذه الحالة لا يمكن ان تدوم لانها ليست طبيعية ولان هذه التصرفات لا بد وان تؤدي الى الحقد من جانب الاتراك وسلعي البلاد على هؤ٫لاء الاجانب الذين يحتقرون اهل البلاد في عقر دارهم . وهذه التصرفات نفسها كانت من اهم العوامل التي ادت الى مذابح الستين .

---

(١) المحررات السياسية الجزء الاول ١١٧ (٢) المصدر السابق ١٩١
(٣) غالب ٢٠٢ (٤) حسن اللئام ١٢٨ — ٢/٧٨ ١٢٩

بعض السلاح في سوريا ولبنان

دخلت كمية عظيمة من الاسلحة الى سوريا ولبنان قبيل مذابح الستين وهي " موسلة من المعامل الفرنسية والانكليزية ... وبيعت جهارا في بيروت من الدروز والموارنة " (١) " كما ان دخل البطارك يثبت ان قد ادخل الى لبنان بين كانون الثاني سنة ١٨٥٧ وبيع سنة ١٨٦٠ اكثر من مئة وعشرين الف بندقية وعشرين الف غدارة " (٢) . وهذه الاسلحة تثبت ان الدولتين المتنافستين ، فرنسا وبريطانيا ، كانتا تصحبان لاستعمال القوة عند الحاجة لتنفيذ مآربهما وذلك بتسليح الانصار وزجهم في مذبحة يقاتل فيها الجار جاره والصديق صديقه اكراما للاجانب . وقد جازت المسألة على هؤلاء السذج فرموا بانفسهم في النار فاصابتهم الحروق والآلام والاحقاد سنين طويلة دون ان يحققوا اي هدف من اهدافهم .

العثمانيون مغلولو الايدي

كان العثمانيون لا يجرؤون على الوقوف في وجه القناصل ولا يستطيعون كبح جماحهم وقد مر معنا كيف ان قنصل فرنسا في بيروت في اوان مختلفة كان يتدخل في سياسة البلاد الداخلية ويملي ارادته ، والاتراك ظاهرون في مراكزهم لا يتحركون . لقد شكا شكيب افندي الذي عين لحل الخلاف في لبنان سنة ١٨٤٥ من تدخل القناصل واستهتارهم بسلطة الحكومة واوامرها وطالب بان يكفوا عن هذا التدخل ليستطيع اتمام مهمته (٣) وهو آنذاك ناظر الخارجية العثمانية ولكن الاقوال سلاح الضعيف والافعال سلاح القوي وطالما ان احتجاجه ووعيده لن يتعدى مذكرته فلماذا الاهتمام به ؟

وطالبت تركيا في مؤتمر باريس سنة ١٨٥٦ بوضع حد لنظام الامتيازات في اراضيها خاصة وهي قد اعلنت في خط كلخانه والخط الهمايوني مساواة رعاياها وادخلت الاصلاحات على قوانينها وانظمتها . ويظهر ان الدول اشفقت على تركيا المعوقة فوعدتها خيرا وانقضى الامر (٤) .

وبقي القناصل يحلون ويعقدون وخاصة قنصل فرنسا . فاذا شاء الاتراك مرة تأديب اصحاب الفتن وتهافوا على هؤلاء تدخل قنصل فرنسا فاطلق سراحهم (٥) واذا ثارت الفتنة طالبوا الحكومة باخذها واعتبروها مسؤولة عن اشعالها (٦) وعثمانيها .

---

(١) المحررات الجزء الثاني ، ١١١ (٢) المحررات السياسية الجزء الثالث ، ١٣٧
(٣) المحررات السياسية الجزء الاول ، ٢٠٨ (٤) بنوا ٥٥
(٥) المحررات الجزء الاول ، ٣٨٩ (٦) المحررات الجزء الثاني ١٠ — ٨٨

حوادث الستين

قامت في لبنان ودمشق في صيف سنة ١٨٦٠ مذابح وفتن راح ضحيتها مئات بل آلاف من الابرياء وحرقت قرى ودمرت مزارع وانقسمت الامة على نفسها فخيم البؤس على كثير من المناطق السورية فما الذي اثار هذه الحوادث ؟

الاسباب عديدة ولا شك يرجع بعضها الى ايام حكم ابراهيم باشا لهذه البلاد اذ سلح طائفة من اهلها لتقاتل طائفة اخرى من جاراتها مما ترك بعض الاحقاد . ولكن السبب الرئيسي يتصل بالاجانب مباشرة واخصهم الانكليز والفرنسيين الذين كانوا يتنافسون على هذه البقعة الحيوية فاتخذ كل منهم حزبا تولى تشجيعه ومده بالاسلحة وتبع ذلك صلف المحميين كما مر معنا حتى ان المسيحيين بعد خروج ابراهيم باشا راحوا يحتجون على الضرائب ويهددون بالتمرد والعصيان على السلطنة [1] وكانوا يلوحون بانتمائهم الى دولة اجنبية وهي فرنسا كما نعلم .

وكذلك رأينا تدخل القناصل وتحميهم مما شل يد الادارة العثمانية وابرزها في مظهر العاجز . كما ان هذه الحماية نفسها افقرت الخزينة لان المحميين كانوا كالاجانب لا يدفعون ضرائب الا بشكل يسير جدا . ولا ننس المبشرين الذين سيمر معنا فيما بعد شيء عنهم وقد استطاعوا ان يتغلغلوا في الاوساط وينشروا دعاياتهم الموجهة كل نحو هدفه . وقد كان للانكليز الدروز اليد طولى في اشعال النار مدفوعين بايد فرنسية كما سبق معنا .

ولم يكن الانكليز اقل مسؤولية من الفرنسيين في هذه الحوادث فان مناصرتهم للفرنسيين دفعت انصارهم الدروز ، الذين كانوا يظنون ان بريطانيا تود كسر شوكة الموارنة ، الى التمادي فيما اقدموا عليه [2] ولكننا لن نهتم باثر الانكليز الا كمنافسين للفرنسيين .

والى جانب اثر الاجانب عوامل داخلية ولكنها اضعف اثرا وربما ردت في النتيجة الى الاجانب انفسهم ايضا . فالشعب لم يكن قد تطور بعد بدرجة يقدر فيها الاصلاحات التي اراد السلاطين ادخالها فاثارت هذه الاصلاحات تعصب المسلمين وهكذا اصبحت كل ### قنات البلاد يسيرها التعصب . كما ان الادارة العثمانية كانت رخوة مهلهلة والقلاقل تكاد لا تهدأ ثائرتها بين سني ١٨٤٠ — ١٨٤٥ ثم تهيل سنة ١٨٦٠ ، بالاضافة الى هذا كله حرب الاعصاب والشائعات المقلقة ، مما خلق جوا صالحا لانفجار بركان الاحقاد والتعصب وادى الى تلك النتائج الوخيمة .

---

(١) حسن اللظم ٨٠

(٢) المحروات السياسية الجزء الثاني ٢٧ ، ٥٨ ، ٦٢٤ ، ٦٣ ، ٢٧١

فرنسا تجاه حوادث الستين

لم تقف فرنسا جامدة تجاه الفتنة تعمل بشيعتها وتقتل فيها بعض مواطنيها [١] فقد ارسل الصيو توفيل وزير خارجية فرنسا الى سفراء دوله في لندرة وفينا وبطرسبرج وبرلين بتاريخ ٦ تموز سنة ١٨٦٠ تعليمات يطلب فيها من سفراء فرنسا في هذه الدول ان يسعوا لدعوتها لمشاركة فرنسا في اعادة الامن الى لبنان ، لان لهذه الدول في رأيه حق التدخل في شؤون لبنان لايقاف اضطراباته باعتراف الباب العالي . واعتقدان هذا الاعتراف هو مجرد الاصغاء لسفراء هذه الدول يوم مذابح سنة ١٨٤٥ وايقاد شكيب افندي على اثرها الى لبنان .

ويأمل الصيو توفيل ان تتألف لجنة دولية لاجراء تحقيق في اسباب الاضطرابات وبيان درجة مسؤولية رعاع الفتن ومأموري الحكومة وتعيين تعويضات وتعديل نظام لبنان . ويؤكد " ان فرنسا اهتمت منذ القديم في شؤون لبنان وهو تقليد مألوف لا يسع حكومة جلالته انكاره وهذا التقليد هو الذي اوجب علينا السعي لدى الدول " [٢] .

وفي نفس اليوم ارسل الى سفيره بالاستانة كتابا يذكر فيه استياء الحكومة والرأي العام في فرنسا من حوادث لبنان ويذكره بحق فرنسا في حماية النصارى . ثم يطلب منه استحثاث الحكومة العثمانية للتعجل بخمد الفتنة ويذكر خيانة مأموري الدولة العلية ووجوب ارسال قوة منعا لامتداد الشر وللاقتصاص من المجرمين لئلا تحكم اوربا بحجرها . ويذكره بوجوب اعادة النظر في نظام لبنان [٣] .

وتوالى نشاط فرنسا السياسي حول هذا الموضوع فاقترحت فرنسا على بريطانيا ارسال فيلق من الجنود الاوربية للقضاء على الفتنة وذلك بتاريخ ١٧ تموز [٤] . وكان الاقتراح شاقا لبريطانيا فلم يسعها رفضه ولم تقبل به . وبقيت تارة ترفض وتحاول اقناع فرنسا بان الصلح قد تم بين الطرفين وذلك قبل حوادث دمشق [٥] وتارة توافق على ان ليس لديها جنود تشركها في الفيلق المذكور [٦] وعلى ان تحدد مدة البعثة العسكرية بستة اشهر وان لا تكون على عاتق تركيا ماليا [٧] . واخيرا قبلت فرنسا تحمل عبء البعثة المالي [٨] ولكنها لا تريد ان تنفرد بالتدخل .

---

(١) المحررات السياسية الجزء الثاني ١٠٨
(٢) المصدر السابق ١٦٥ — ١٦٦
(٣) المصدر السابق ١٦٧ — ١٦٨
(٤) المصدر السابق ١٦٨ — ٦
(٥) المصدر السابق ١٨٦ — ٧
(٦) المصدر السابق ١٧٠
(٧) المصدر السابق ١٨٩ — ٩٠
(٨) المصدر السابق ١٩٢ — ٤

ورأت فرنسا ان يعقد في باريس مؤتمر يبحث الحلول الممكنة لهذه القضية واقترحت ما يلي : (١)

١" — ايفاد لجنة اوربية الى سوريا لاجراء تحقيقات فيها بالاشتراك مع مأموري الباب العالي وادخال التعديلات اللازمة على نظام سنة ١٨٦٠ ٨

٢" — ايفاد قوة الى سوريا للمساعدة على اعادة هدوء الراحة الى هذه الايالة

٣" — عقد اتفاق مع الدول العظمى للقطع بهائيا بين المسألتين

٤" — تفويض سفير تركيا في باريس تلغرافيا الاجتماع بممثلي الدول الكبرى لمفاوضتهم والاتفاق معهم وضعا لبنود هذه الاتفاقية .

لكن الباب العالي لم يقبل الا الاقتراح الاول فقط بتاريخ ٢٠ تموز . ثم بتاريخ ٢٧ تموز ارسل عالي باشا الصدر الاعظم الى احمد وفيق افندي سفير تركيا في باريس بكتاب (٢) يذكر فيه ان الباب العالي يعتقد ان ذهاب فؤاد باشا مع القوة الموضوعة تحت تصرفه كاف لحفظ النظام ، ومع ذلك فاذا شاءت " الدول العظمى صديقات الدولة العلية وحليفاتها خلال بحث ممثليها المفوضين المجتمعين في باريس في هذه المسألة وجوب ارسال قوة عسكرية اوربية تعمل بالاتفاق مع مندوب الباب العالي لضمان اعادة السلم فاجلا الى تلك الانحاء وتوطيد سلطة الحكومة الشاهانية فان جلالتها قد شاءت ان تخولكم مل السلطة لتبحثوا في مواد الاتفاقية مع ممثلي الدول المشار اليها وتوقعوها على شرط ان تكون متضمنة ما يأتي :

١" — ان حركات الجنود المراد ارسالها تدار بالاتفاق مع مندوبي الباب العالي .

٢" — يعين عددها وفقا لمقتضيات الحالة الحاضرة .

٣" — يحدد وقت جلائها . "

وقد اضطر المؤتمر لقبول هذه الشروط فحدد اقصى عدد للبعثة العسكرية وتقرر ان ترسل تصفها فرنسا فاستلم الجنرال دي بوفور دوتيول القيادة وامر ان يعمل بالاتفاق مع فؤاد باشا وحدد مدة بقاء البعثة في سوريا بستة اشهر .

مؤتمر باريس

انعقد مؤتمر باريس الذي دعت اليه فرنسا وتدخضره مندوبون عن النمسا وبروسيا والمورد كولي من انكلترا وورس عن بروسيا وكيسيليف عن روسيا واحمد وفيق عن تركيا . ودامت مناقشاته عدة

---

(١) المحررات السياسية الجزء الثاني ١٨٤ — ٥

(٢) المصدر السابق ٢٢٧ — ٨

ايام ارادت خلالها روسيا ان تعبر في الاتفاقية على شمول حماية المسيحيين كافة ابناء السلطنة او ان توقع الدول اتفاقا خاصا بهذا المعنى لكن سفير تركيا رفض هذه الاقتراحات ودعمه سفير انكلترة وقامت فرنسا بدور الموفق دون جدوى . واخيرا وضعت اتفاقية باريس في ٣ آب سنة ١٨٦٠ وفق مقترحات فرنسا مع التحفظات التي طلبتها تركيا (١) . وفي ٥ ايلول وقع المندوبون هذا الصك بعد ان جاءهم تفويض حكوماتهم .

ولم تشأ انكلترا ان يصبح هذا المؤتمر وهذه البعثة اداة لتثبيت مطامع فرنسا في سوريا ولبنان فاصرت حين وضع الاتفاقية على وضع ملحق لها جاء فيه " لما كان معتمدو دولة النمسا وفرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا وروسيا يرغبون في ان يعيدوا صفة المساعدة المبذولة للباب العالي تحقيقا لنيات دولهم وفقا لمواد الصك الذي وقعوه وان يوضحوا العواطف التي املت عليهم شروطه وتجردهم عن كل غرض فيصرحون بصورة علنية قاطعة بان الدول المتعاقدة لا يتوخين ان يطمحن ولن يطمحن ابدا في اتخاذ اجراءاتهن عهودهن الى الاستيلاء على بعض اراض او اكتساب نفوذ خاص او بعض امتيازات تتعلق بتجارة رعاياهن مما لا يمكن منحه لرعايا سائر الدول (٢) " . وبهذا الملحق الذي وقع في نفس اليوم الذي وضعت فيه الاتفاقية اي ٣ آب قطعت انكلترا الطريق على مطامع فرنسا من جراء تدخلها العاشر كما ان شروط العثمانيين قصت جناح البعثة العسكرية الفرنسية فلم تتمكن من ادائها اي عمل اللهم الا المساعدة في اعادة بناء مساكن القرى المحروقة . ولما حان وقت الجلاء لم يكن في نية الحكومة الفرنسية سحب قواتها بعد ان دقت لنفسها وقتا طالما حلمت به . وقد كان قائدها على اعمال دائم بالعطوان طوعا يصغي لارائه (٣) ، ولكن الاسد البريطاني الساهر اجبر بعد مفاوضات طويلة الديك الفرنسي على ان يسحب جنوده (٤) . واحتفظ الفرنسيون لانفسهم بحق البحث في كل حادث يمكن ان يتجدد في سوريا ويوجب عليهم المسارعة لاغاثة مسيحيي لبنان ضد المعتدين (٥) . ويظهر من قول احد الكتاب الفرنسيين ان الحملة الفرنسية كانت ترمي الى هدفين " الانتظام للماضي وتهيئة المستقبل (٦) " . وكانت انكلترا تدعم موقف العثمانيين اكثر مما يفعله مندوبهم نفسه .

---

(١) راجع نص الاتفاقية في المحررات السياسية الجزء الثاني ٢٣٨ — ٢٤١
(٢) المصدر السابق ٢٤٢ — ٢٤٣ (٣) المحررات السياسية الجزء الثالث ٣٩١
(٤) المصدر السابق ٤٠٠ (٥) روشو ٢٠
(٦) فوشي ٢١

مؤتمر بيروت او لجنة سوريا الدولية

اسرعت الحكومة العثمانية اثر وقوع المذابح وتنبه الدول الى ارسال وزير خارجيتها المحنك فؤاد باشا مع قوة من الجند وفوضه مطلق الصلاحية ليعيد الامن ويجازي المذنبين ويحوض على المتكوبين فسبق مندوبي الدول وقد نهج — على حد تعبير اللورد دوفرين — " فور وصوله طريقة مجازاة قصد بها ارضاء الرأي العام في اوربا اكثر من اقناع المتكوبين بانه يريد الاثار لهم " (١) ومع ذلك فقد استطاع الفور بتدبير المندوبين الاوربيين لما تمكن من القيام به رغم حرج مركزه " كمدافع عن سلطة سلطانه ومنفذ ارادة اوربا ولقلة عدد جنوده وفراغ خزينته من المال وانفراده وعدم جدارة مأموريه وقلة نفع وسائله وخطورة الاهمة " (٢) ، كما ان بعض المؤرخين المطلعين من المسيحيين اتهموا عليه (٣) .

وفي ٢٦ ايلول كان مندوبو الدول قد وصلوا فارسلوا مذكرة الى فؤاد باشا يسألونه الحضور لترأس جلسات اللجنة او استنابة احد عنه وفي ٥ تشرين الاول عقدت لجنة سوريا الدولية في بيروت اولى جلساتها فلم يحضرها فؤاد باشا بل اناب عنه ابرو افندي (٤) وكانت هذه الاستنابة فاجعة جدا فابرو افندي لا يستطيع القطع برأي دون الرجوع لرئيسه مما يعطي فؤاد باشا فرصة للف والدوران اذا اراد ولكسب الوقت وحل المشاكل دون ان يتم للمندوبين التدخل . وقد نجم الى حد بعيد وانقسم المندوبون فيما بينهم وراحوا يتدخلون المشاريع تارة بشأن لبنان (٥) وتارة بشأن سوريا كلها (٦) على ان روح التنافس بدت واضحة في المشاريع والمناقشات التي دارت في المؤتمر ، وكل دولة كانت تؤيد تسعى لدعم اتباعها فروسيا تريد فائمقامية روحية (٧) او حكومة مستقلة للروم في لبنان بينما تتوخى انكلترا ايلاء سوريا بكاملها لا مركزية واسعة (٨) ، اما فرنسا فكان يهمها المحافظة على مصالح اتباعها الموارنة . وبقيت المناقشات شهورا طويلة انتهت بتوقيع نظام لبنان الجديد بتاريخ ٩ حزيران سنة ١٨٦١ .

---

(١) المحروسات السياسية الجزء الثالث ١٠٤ (٢) المصدر السابق ١٥٠
(٣) خاتجيان ، الخوري انطون ، " نبذة مختصرة في حوادث لبنان والشام بين سني ١٨٤٠ و ١٨٦٠ " نشرها الاب لويس شيخو اليسوعي . بيروت سنة ١٩٢٧ ص : ٤٤
(٤) المحروسات السياسية الجزء الثاني ٣٦٢
(٥) المحروسات السياسية الجزء الثالث ٣٩٩
(٦) المصدر السابق ٥٨ — ٦٢
(٧) المصدر السابق ٨٧
(٨) المصدر السابق ١٧

اول متصرف للبنان

كان فؤاد باشا قد عين بعد وصوله الى سوريا يوسف كرم قائمقاما على القائمقامية المسيحية وكانت فرنسا تؤيد يوسف كرم اما القنصل الانكليزي فيكفيه ان تؤيد فرنسا شخصا حتى يجد فيه ذلك عيبا كافيا . وقد كتب عن يوسف كرم انه " آلة بيد العثمانيين طوعا والانكليز الطوعي "(١) . لكن القائمقام استطاع ان يكسب ود القنصل الانكليزي بزيارات قام بها لهذا القنصل وعلى ذلك لم يعد القنصل الانكليزي يعارض فيه (٢) .

ولما تم وضع نظام لبنان عهدت الدولة العلية بموافقة الدول التي اشتركت في وضعه داود باشا الارمني اول متصرف لجبل لبنان على ان يطبق النظام الذي سن للجبل بصورة تجريبية ويقدم فيما بعد اقتراحاته بشأن اصلاحه . بالفعل فقد تقدم ببعض المقترحات عدل نظام لبنان على اساسها سنة ١٨٦٤ وبقي النظام الاخير معمولا به حتى اول الحرب العالمية الاولى .

واذا نظرنا الى نظام لبنان نجده يحد من سلطة الدولة العلية على هذه المنطقة من املاكها ، ويضع هذا الجبل تحت الحماية الاوربية لخمس دول بعد ان كانت فرنسا وحدها هي التي تتدخل بشأنه(٣). وفرنسا نفسها هي التي جرت هذا الاقتراح لتنفرد بها بتدخلها الفعلي بشأن حوادث الستين .

كان داود باشا رجلا ذكيا يحب العمران ويريد الاصلاح ولكن الدسائس ما لبثت ان بدأت تحاك حوله بقصد سعي هو لتلطيف الجو وتهديد المخاوف واخذ يعد الناس بانجاح البلاد وتأمين راحتها وعمرانها " وكان مستندا الى دولة فرنسا . لكن هذه الحوادث صارت بدسائس بعض رجال الدولة العلية كما قيل " (٤) .

وقام داود باشا الذي رأى ان الجبل يظل مختنقا في الوضع الذي اوضعته له الدول يطالب بضم بيروت وطرابلس وصيدا " وقسم من الضنية وعكار بعكار الى لبنان و " ان يكون لبنان حرا مثل باقي الممالك وكان ذلك بمعاونة الفرنساوية " (٥) .

---

(١) العصور السياسية الجزء الثالث ٨٦
(٢) المصدر السابق ٣٠٥
(٣) ابكاريوس ١٧١ (من برقية للورد روسل وردت في التعليق) .
(٤) ثورة وفتنة ١٣٨
(٥) المصدر السابق ١٥٣

خلفاؤه

ولكن الدولة العلية لم تكن على استعداد لهذه التضحية فدبرت له مقلبا ازاله عن كرسيه وعينت خلفا له سنة ١٨٦٨ فرنكو باشا الحلبي الذي بقي حتى حلته توفي سنة ١٨٧٣ وتعاقب بعده رستم باشا الايطالي (١٨٧٣ — ١٨٨٣) ثم واصيه باشا الالباني (١٨٨٣ — ١٨٩٢) ثم نعوم باشا الحلبي (١٨٩٢ — ١٩٠٢) ثم مظفر باشا البولوني (١٩٠٢ — ١٩٠٧) ثم يوسف باشا فرانكو (١٩٠٧ — ١٩١٢) وآخرهم اوهانس باشا قيومجيان الارمني (١٩١٢ — ١٩١٥) حين الغيت الامتيازات الاجنبية ومن ضمنها نظام لبنان الاساسي .

ويظهر ان المتصرفين الذين تلوا داود باشا فهموا كيف اقبل كما ادركوا ان المدة التي سيقضونها في جبل لبنان محددة بموجب نظام لبنان في فرمان التعيين ، ولذلك فمن المستحسن ارضاء الدولة العثمانية حتى تقدر خدماتهم عند انتهاء مدتهم في لبنان فتسلم اليهم وظيفة ارفع بدلا من ان تتركهم يتسكعون دون عمل ولا تقدير ؛ هذه التضحيات وغيرها ولا ريب جعلت متصرفي لبنان يهتمون بخدمة السياسة العثمانية قبل كل شيء فيعدل احدهم ميزانية الجبل بحيث تستغني عن المساعدة التي كانت تدفعها له الدولة العثمانية وطبق غيره نظام القضاء العثماني في الجبل وتساهل ثالث في تدخل الجنود العثمانيين في حدود متصرفيته . ويظهر ان الباب العالي عرف كيف يختار موظفيه .

وقد ركن الجبل الى الهدوء بعد تلك الفورة وابعد هذا النظام اصابع الاجانب العابثة فلم يقولوا بعد انهم يريدون حماية المسيحيين في لبنان ولهو لاء نظام خاص يعطيهم استقلالا نوعيا وبعد عنهم ظلم الاتراك . لكن الاجانب لم ييأسوا ان يتراجعوا فارسلوا جنودا مخلصين يهتمون لهم الدعاية ويضعون حجر الزاوية في بناء لبنان الجديد الا وهم رجال وساء الارساليات التي عمت بركاتها الساحل والجبل والداخل .

السياسة الفرنسية بعد حوادث الستين

ومعنى ان فرنسا استنادا الى صداقتها مع الباب العالي منذ وقعت اولى امتيازاتها صارت تهتم بمسيحيي الشرق وخاصة الموارنة [1] ولما وصل نابوليون الى اسوار عكا احس انه خليفة شارلمان ولويس الرابع عشر وانه حامي الكثلكة وقد ارسل الى الموارنة يقول " بان الكنيسة ستنتصر وتمتد

---

(١) بيستلهومير ٢٢

على يده " [١] ولكن نابوليون فشل واضطر ابراهيم باشا ان يتراجع ايضا ومعه نفوذ فرنسا بينما كان نفوذ انكلترا يتزايد [٢] .

ولما كانت فرنسا من الدول التي انتصرت لتركيا في حرب القرم ثم جلت بعتادها العسكرية الى سوريا اثر حوادث الستين وانسحبت دون ان تمس الى العلاقات بين البلدين فان نفوذ فرنسا قد ازداد قليلا ايام السلطان عبد العزيز الذي اعتلى العرش سنة ١٨٦١ وكان مهتما بالاصلاح فسمح للارساليات بتأسيس المدارس والمستشفيات وسمح للاجانب بتملك العقارات في تركيا وبالتنقيب عن المعادن وكانت فرنسا من اكثر الدول افادة من هذه التسهيلات [٣] .

ولن يستغرب احد ان تؤثر هزيمة فرنسا سنة ١٨٧٠ في نفوذها في الشرق ، خاصة وقد استغل الالمان الوان الدعاية ليحاربوا النفوذ الفرنسي وأهم تلك الالوان الدعاية بالصور فما اكسب الالمان الذين كسروا فرنسا اعجابا وهيبة في نفوس الشعب [٤] . والالمان منافس جديد خطر خاصة وان نفوذه في الاستانة بدأ يزداد هذ تسنم عبد الحميد الثاني العرش سنة ١٨٧٦ .

مؤتمر برلين

بعد الحرب الروسية التركية في البلقان وانكسار تركيا اضطرت الى عقد معاهدة سان استفانو في ٣ آذار سنة ١٨٧٨ ولكن بريطانيا لم توافق على هذه المعاهدة فاضطرت روسيا الى ان توافق على اعادة النظر في معاهدة صلح سان استفانو في مؤتمر يعقد في برلين . وفي ١٣ حزيران سنة ١٨٧٨ التأم مؤتمر برلين فتمكنت روسيا بمساعدة بسمارك من استرداد بعض هيبتها . اما فرنسا فقد قبلت الاشتراك في هذا المؤتمر ولكن عندما طلب من المؤتمرين ان يسجلوا في المعاهدة التي ستوافق عليها الدول الست المشتركة في المؤتمر ان هذه المعاهدة لا تمس باي شكل حقوق الحماية او الامتيازات التي منحتها فرنسا بموجب معاهداتها مع تركيا او نظام لبنان او قضية مصر " [٥]

لقد نجحت فرنسا في هذا المؤتمر بجعل ما تدعيه من الحماية والامتيازات حقا معترفا به لا من الدولة العلية وحدها بل من بقية الدول العظمى ايضا ولكن هذا الاعتراف لم يكن ليستطيع اعادة ما فقدته فرنسا من نفوذها في هذا الشرق بسبب اضطراباتها الداخلية اولا وانغماسها العسكري ثانيا .

سياسة فرنسا بعد مؤتمر برلين

---

(١) بيستلمير ٢٧٤
(٢) غير ٢٨٨
(٣) غرني ١١
(٤) المصدر السابق ٤٤
(٥) المصدر السابق ٧٤

اشترطت فرنسا في مؤتمر برلين ان لا تحتل انكلترا مصر وبرغم ذلك فلم تمض اربع سنوات على المؤتمر حتى احتلت انكلترا مصر سنة ١٨٨٢ وفي نفس السنة وصلت الى الاستانة البعثة العسكرية الالمانية لتدريب الجيش العثماني فكانت ضربتين ادتا الى خمول النفوذ الفرنسي (١) .

ومع ذلك فقد بقيت فرنسا تحسب نفسها حامية للمسيحيين فلما حدثت مذابح ١٩٠٩ ارسلت فرنسا قطعا حربية تتجول على سواحل سوريا وكيليكيا كما ان الضابط البحري بيفي حمل على قطعته المسيحيين الاشد تهديدا . وتلقى قناصل فرنسا الامر بايواء السكان " وقد تميز القنصل وكتربيه في حلب والقنصل جفروا في اللاذقية بحمايتهما " (٢)

ولكن يبدو ان الفرنسيين قد خففوا من زيارتهم لهذه البلاد بعد حوادث الستين فان المؤرخ هوار لم يجد اثرا للفرنسيين عندما زار سوريا (٣) وكذلك نجد ان تأسيس دير القرية يتعجب عندما يرى فرنسي لانه منذ امد طويل لم يصادف اي فرنسيا بينما يجد من العديد من الانكليز والالمان (٤)

اما الدكتور لورتي فلم يكن في دمشق حين زارها في الربع الاخير من القرن التاسع عشر سوى عشرين فرنسيا (٥) .

---

(١) فرنسي ٧٤
(٢) ساعي ٦٦
(٣) هوار ، كليمنت ، " مذكرات دوت اثناء رحلة لسوريا " باريس ١٨٧٦
(٤) فرنسي
(٥) لورتي ٥٨٦

العلاقات الاقتصادية

اهمية موقع سوريا

اشتهرت سوريا منذ القدم بكونها همزة الوصل بين قارات ثلاث فكان لها دائما اهمية حربية خاصة وكانت بحكم هذا الموقع معبرا للقاصدين الاسيويين والافريقيين والاوربيين . كما ان فيها الكثير من الخيرات الطبيعية واقليمها معتدل واهلها مشهورون ببراعتهم في التجارة وخاصة اهل السواحل منهم . كل هذه الميزات جعلتها مطمع انظار الدول القوية والشعوب الحية للتبادل الاقتصادي ؛ فتهافت الناس نحوها طورا قاصدين وطورا مهاجرين مستعمرين ؛ كما ان اهلها لم يقصروا منذ ازمان متطاولة في القدم ؛ في حمل تجاراتهم وسلعهم الى غيرهم من الشعوب . وقد كان لهم فضل نقل الكثير من معالم المدنية الى جانب نقل تجارتهم . وجاءت الاديان تعبق من روح سوريا او ما جاورها فزادت في اهمية هذه البقعة وشاكلها .

بعد الحروب الصليبية

كانت سوريا ميدانا لهذه الحروب التي انتهت بخروج الفرنجة بعد ان قضوا حوالي قرنين من الزمن على سواحل هذه البلاد واحيانا في بعض اجزائها الداخلية . والخراب وآخر المرافق الاقتصادية المختلفة من زراعة وصناعة وتجارة من مستلزمات الحروب ؛ وقد نالت سوريا في تلك الحقبة من الزمن نصيبها الوافر من تلك المصائب . ولكن علاقات جديدة خلفت الحرب والعداوة بين المسلمين والفرنجة في سواحل سوريا بعد جلاء الاخيرين ؛ وهي علاقات " تجارة وتبادل المنافع والحضارة "(١) فاسست اسواق كانت موقتة لبضعة ايام في بادىء امرها ؛ ثم ما لبثت ان استقرت بتشجيع الملوك الذين رأوا في الضرائب التي يجبونها منها موردا حسنا لخزائنهم (٢) واستقرت مع الاسواق جاليات بدأت باهل المدن الايطالية ثم تلاهم الفرنسيون " وكانت نتيجة ذلك انتعاش الموانئ واتصال الامور بينهم وبين المجموعة المسيحية في اوربا مما ادى الى اهتمام دول اوربا — وفرنسا خاصة — بالشام (٣) " . ولم يتجل هذا الاهتمام الا بعد امتيازات فرنسا التي سبق ذكرها .

هذا في الساحل ؛ اما الداخل " فقد كانت الامور تسير فيه من سيء الى اسوأ . فقد اشتد

---

(١) مؤنس ؛ حسين ؛ " الشرق الاسلامي في العصر الحديث " طبعة ثانية ؛ مصر ١٩٣٨ ص : ٢٩
(٢) المصدر السابق ٣١
(٣) المصدر السابق نفس الصفحة

بالاهلين عسف العمال، وظلت عليهم العجاف وغارات البدو وافدات الاوبئة وغوائل الجراد وغزوات العضول . وكان نواب الاقاليم لا يفتأون يتدابرون ويتحاربون فيصيب البلاد من جراء ذلك اذى بالغ " (١) .

الفتح العثماني والادارة العثمانية في سوريا

دخلت هذه البلاد تحت حكم العثمانيين منذ سنة ١٥١٦ وبقيت في ايديهم حتى سنة ١٩١٨ . لقد وجدوها على الحال التي سبق ذكرها ولم يبذلوا بعمرانها وتنظيمها وانما ابقوا القديم على قدمه في الادارة . وكان همهم ان تصل اليهم في كل سنة حصتهم من خراج البلاد . وما زالت الحال بقي على ما كان عليه عند دخول العثمانيين ، اذن لهان الامر . لكن الفاتحين رموا ببعض الاجلاف من جنودهم الانكشارية فعاثوا في البلاد فسادا (٢) . وظلت هذه البلاد تتأخر والبلاد الاوربية تتقدم وقد دفع هذا الفارق في الحضارة ، الاجانب لاستغلال الضعف فاقاموا في تجارتهم وبسط سيطرتهم الاقتصادية والسياسية والادبية تارة على المكشوف واخرى من وراء الستار .

سوء الحكم العثماني في سوريا

كانت الفوضى تعم الامبراطورية العثمانية باسرها ولكن ولايات سوريا تضررت بسبب هذه الفوضى اكثر من غيرها (٣) لانها طريق تجارة ، ومن مستلزمات التجارة الامن ووجود حكومة قوية عادلة حازمة ، لا تأخذها في الحق لومة لائم وهذا عكس ما كان يسود سوريا في زمن الحكم العثماني .

ان انكسارات تركيا المتواصلة منذ اواخر القرن السابع عشر في حروبها مع النمسويين والروس قد زادتها الفوضى الداخلية اثرا في تهديد سلامة الرجل المريض وانهيار اجوائه (٤) . وهذه الفوضى كانت تتجلى في القرن التاسع عشر ، في ضياع حقوق الافراد (٥) وفشو الرشوة بين الموظفين جهارا (٦) ، وفساد الضمائر وقلة الذمة عند الحكام (٧) وفقدان الامن احيانا (٨) وانتشار الخوف وكثرة الشر والقلق (٩) .

ولا غرو ان الولاة الاتراك كانوا يستطيعون بشيء من الحزم ان يحققوا الامن الى نصابه والثقة

---

(١) موسى ٣١ (٢) حسن اللاذم ٣٣
(٣) ماسون (القرن الثامن عشر ٢٨٤ (٤) المصدر السابق ٢٨١
(٥) المحررات السياسية الجزء الاول ٣٧٥ (٦) المصدر السابق ٣٢٨
(٧) رولاند ، ادمب ، " محاولة تاريخية اجتماعية عن الديون العمومية العثمانية " باريس ١٩٢٧ .
ص : ١٠
(٨) المحررات السياسية الجزء الاول ٣٨٣
(٩) غورة وقصة ٨٧

الى النفوس . وقد ظهرت بضع محاولات اهمها هذه العقدة [١] ، لكن الدولة لم يكن بيدها على ما يظهر امر هذه الولايات البعيدة وهي غارقة في مشاكلها المركزية وحروبها الخارجية ، كما ان انعدام الطرقات وبعد المسافات جعل الاخبار لا تصل الا متأخرة جدا بحيث يكون قد فات وقت العلاج . وبيع المناصب وقلة مكث الولاة جعل هؤلاء يهتمون قبل كل شيء باملاء صناديقهم بدلا من تحقيق العدالة وفرض سيطرة الدولة والقانون .

تصارع الطوائف

وبما كان لتصارع الطوائف اثر في خلق البلبلة فالمسيحيون بعد ان اعانوا الفرنجة الصليبيين اصبحوا ينظر اليهم شزرا ، كما ان الجهل جعل بعض رعاع المسلمين يسيطرون على الاحياء وبقي المسيحيون صابرين حتى جاء ابراهيم باشا فساوى بين الطوائف جميعا امام القانون فلما خرج صعب على المسيحيين العودة الى الغير بعد ان عاشوا بالحرية ، وكانت الدولة في حالة من الضعف عظيمة والاجانب يسيرون دفتها وفي الوقت نفسه تحرك كل دولة احدى الطوائف وتتخذها دمية لحركاتها ومطامعها مما ادى الى نشوب المذابح في لبنان ودمشق ولولا العقلاء لعمت سوريا باسرها . ويعزو بعضهم اثارة الفتن وتشجيع الاضطراب الى الدولة العلية نفسها [٢] . فهل كان للعثمانيين ثأر مع اللبنانيين الذين لم يخضعوا تماما للسلطة الشهابية الشاهانية مدة حكمها هذه البلاد بل ثاروا عندما سنحت لهم الفرصة ، جيش محمد علي باشا ضد السلطنة ؟ ام ان هذه الحركات كانت ستارا لاخفاء عدم اهلية اللبنانيين للمحافظة على هذا الظل من الاستقلال الذي منحوه ؟ الارجح ان كلا السببين قد وجه سياسة العثمانيين نحو الجبل كما ان مجرى ميل الموارنة نحو الفرنسيين و " لجوءهم الى القنصلية الفرنسية بالشام ؟ [٣] قد اوغر صدر الولاة على الموارنة وبما جعل الولاة يتهمون الموارنة بالخيانة .

وقد سبق لنا ان ذكرنا اثر حرب القرم في اثارة صلف المسيحيين [٤] وتعصب المسلمين الذين اخذوا يؤلفون الجمعيات السرية [٥] لاعادة مجد الاسلام واعادة الدين الى الطاعة . ولا شك ان هذا التعصب كان له اثره في خلق مذابح دمشق [٦] اذ انهم لم يتورعوا عن تكفير السلطان ذاته [٧].

---

(١) المحررات السياسية الجزء الاول ٣٥٥
(٢) المصدر نفسه ٢٩٤ و ٣٠٤ — ٣٠٦ (٣) شاهد عيان ٢٨
(٤) كرد علي ، محمد ، " خطط الشام " ستة اجزاء دمشق ١٩٢٥ — ١٩٢٨ الجزء الثالث ٨١
(٥) حسر اللظام ١٣٠ (٦) مشاقة ١٦٩
(٧) نبذة مختصرة ٣٣

اما الدروز فبعد ان كانوا يعيشون مع اخوانهم الموارنة على وفاق تام [١] حتى القرن السابع عشر ، نقموا على هؤلاء الجيران حملهم السلاح ضدهم ايام ابراهيم باشا وانضموا الى الانكليز مناصري الافرنسيين الذين يحمون الموارنة . بما ان الانكليز كانوا يدعون الغيرة على الدولة العثمانية فسقد اظهروا الدروز ولاءهم الكامل لها بعد خروج ابراهيم باشا ورفضوا تحكم امير مسيحي فيهم [٢] كما انهم ظلوا ناقمين على الانكليز والاتراك بتكليلهم بالمسيحيين في المذابح المتوالية بين ١٨٤٥ — ١٨٦٠ .

الاقطاع وحصر الثروة

ومن اسباب البلبلة حصر الثروة بين عظماء البلاد وكبار الموظفين وعملاء الامبراطورية [٣] فكانت الغالبية العظمى من الشعب تكد وتعمل طول السنة لتقدم ثمرة اتعابها الى سادتها ، وتكاد هذه الغالبية ان تكون اقل حظا من البهائم من حيث العناية براحتها وموئنها وصحتها . واصبح اصحاب الاقطاع الذين يتوزعون مناطق من المناطق وكأنهم يملكون المنطقة باسرها و " كانوا يتكلمون ان الثلج وما يبدد هو لهم " [٤] عدا عن الاهانات والقتل والحبس التي كانوا يلحقونها بهؤلاء العبيد . وقد توسم هؤلاء الاقطاعيون خطوات الباشوات وهؤلاء ترسموا خطوات السلطان الذي كان لا يفرق بين اموله الخاصة واموال خزينة الدولة وكان يحكم حكما مطلقا [٥] استبداديا ، والناس على دين ملوكهم . فلا عجب اذا اسفر هذا الضغط عن حوادث مؤسفة في المناطق التي كان يشعر اهلوها بشيء من الضعف تعتدي عليهم دول اجنبية مثل اهل جبل لبنان الذين ثاروا على المشايخ الخازنيين واضطروهم لهجر قراهم والالتجاء الى بيروت . وكان من نتيجة نظام جبل لبنان الذي سن سنة ١٨٦١ قضاؤه على الاقطاعيين [٦] . كما ان هذه المذابح والاجراءات التي اتخذها فؤاد باشا زادت في نفوس الشعب واستكانته للعثمانيين .

فساد النظام المالي :

رأينا ان طبقة صغيرة من الناس كانت تتحكم بمصائر الباقين فتجمع منهم القسم الاوفر

---

(١) ريمنطيوبر ١٨ — (٢) المحررات السياسية الجزء الاول ٥٥ و حسن النظام ٣٦
(٣) روباني ١٦
(٤) ثورة ونتنة ٧٢ — (٥) روباني ١٦
(٦) كرد علي الجزء الثالث ١٨

ما يجنونه باسم ضرائب تحتفظ لنفسها بأكثره وتبعث باقله لخزينة الدولة • فما هي الضرائب التي كان يحصلها هو؟ لا؟ وما هي بقية موارد الخزانة السلطانية ؟

كان المقاطعجية يجبون العشر عن الغلال والحاصلات ولكن هذا العشر كان دائما يتجاوز حدوده بالبلدر وغيره من الطرق • وكذلك يجبون ضريبة العقارات (الويركو) ؛ ومن المسيحيين يجمعون الجزية مقابل اعفائهم من الخدمة العسكرية وهذه كلها " تكاليف شرعية " •

اما " التكاليف العرفية " وهي احدث من الاولى فتشمل رسوم الجمارك والتتبع والرسوم على المصايد والمعالم وامثالها •

اما البلاد التي كانت تتمتع بشيء من الاستقلال فعليها ان تؤدي خراجا معلوما للخزانة السلطانية (٢) كمصر مثلا •

والنظام الاقطاعي السالف الذكر حل محل المركزية الضيقة في السياسة المالية العثمانية في اوائل النصف الثاني من القرن الثامن عشر (٢) • واخذ القرن التاسع عشر بعد الثورة الفرنسية ؛ فوجد الامبراطورية العثمانية تتخبط من حيث السياسة المالية في (٣) :

١" — نظام ضرائب فظيع • وليس من موازنة للدولة وحساباتها المالية لا تنشر ولا يعرف عنها الناس شيئا ؛ كما ان مالية الدولة متداخلة مع مالية السلطان •

٢" — ليس من دستور والسلم الخارجي والداخلي مهددان دائما واخلاق الموظفين فاسدة والاستقامة لا وجود لها عندهم •

٣" — التجارة والزراعة لا تزالان في دور الطفولة ؛ ووسائط النقل وادوات التنقل معدومة حتى الطرق في سوريا لم يكن لها وجود حتى منتصف القرن التاسع عشر ؛ (٤) اللهم الا بقايا الطرق الرومانية • وكذلك العراق " لم تنل اي حظ من الاهتمام " (٥)

---

(١) راجع بشأن هذه الواردات روماني ١٢
(٢) المصدر السابق ٩
(٣) المصدر السابق ١٧
(٤) تريس ك. ر. " تاريخ طريق بيروت — دمشق بين سني ١٨٥٧ — ١٨٩٢ " في مجلة " الجغرافيا " المجلد ٦٤ العدد ٥ باريس ١٩٣٦ • ص : ٢٢٧
(٥) روماني ١٥

الامتيازات الاجنبية واثرها

وعدا عن هذه الامور الخطيرة بالنسبة لحياة البلاد الاقتصادية لم يكن باستطاعة الحكومة العثمانية تعديل رسوم جمارکها الا بموافقة الدول الاجنبية [١] فلما اضطرت الى ذلك سنة ١٩٠٧ ولم يعد لها وسيلة غيرها عقدت اتفاقا مع الدول بهذا الشأن . كما ان الاجانب كانوا كما قدمنا معفيين من اغلب الرسوم التي تدفعها الرعية ويدفعون الباقي منها بشكل مخفض وهذه ضربة قاصمة للخزينة العثمانية اذا علمنا ان اغلب التجارة كانت بيد هؤلاء الاجانب .

مر معنا كيف ان الدولة العلية احتجت مرات عديدة على سوء استعمال الامتيازات وسعت للحد منها والتحرر من رقابتها خاصة وقد صيغت الامتيازات بقالب محافظ [٢] فاعاقت عمل الموظفين الاتراك وضيقت سلطة الحكومة في بلادها نفسها . واثرت تأثيرا سيئا في علاقات تركيا مع الدول [٣] . وقد كان الاجانب حتى سنة ١٨٦٧ محرومين من حق تملك العقارات في تركيا . فلما وافت تلك السنة سمح لهم بهذه الملكية مقابل دفع الرسوم التي يدفعها العثمانيون عادة على املاكها [٤] .

لقد سعى العثمانيون لانقاذ ما تبقى من حطام سفينتهم يوم فكروا في الاصلاح ثم اصدروا الخطوط الشريفة في سنتي ١٨٣٩ و ١٨٥٦ وفيها نرى انهم يقطعون العهد بتنظيم موازنة للدولة وتوزيع الضرائب بالعدل والمساواة بين الرعية . ولكن حرب القرم كشفتهم على حقيقتهم من حيث القوة العسكرية ومن حيث الوضع الاقتصادي والمالي . وسعى الاتراك للترفيع فالحقوا المجلس المسمى " مجلس الخزينة الاعلى "[٥] والمؤلف من اربعة من كبار الموظفين العثمانيين وثلاثة من الاجانب هم انكليزي وفرنسي ونمسوي بحق مراقبة المالية وسعى هذا المجلس لدعم المالية التركية لكن القروض المتوالية وعدم انعاش الاقتصاد المحلي ادت الى الافلاس الذي سنتحدث عنه عند بحث الديون العمومية .

القنصليات السورية وتجارتها

قلنا ان سوريا اشتهرت منذ القدم بصلاتها التجارية مع الاقطار المجاورة والبعيدة وكانت مركز انتقال اغلب بضائع الشرق الى الغرب وبضائع الغرب الى الشرق . ولكن ادارة العثمانيين السيئة

---

(١) بلينر ديل و دونالد : " العراقيل المالية الاوربية في الامبراطورية العثمانية " نيويورك ١٩٢٩ . ص : ١٥٤

(٢) سياسي قديم ٢٧٨

(٣) براون ٩٦ — ٧

(٤) بنيا ٢٢ — ٣

(٥) روماني ٢٠ — ١

ومن قبلها تنازع الامراء المحليون بالاضافة الى الثوارل التي عددناها من قبل سواء الاهلية او الجراد او غيرها ادت الى تقليل السكان وبالتالي الى تقليل التجارة [١] . ويجب ان نذكر ان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وفتح ترعة السويس بعد منتصف القرن التاسع عشر قد حفظ تجارة الترانزيت عبر البلاد السورية . وكذلك فان الثورات والفتن وخاصة مذابح الستين قد اثرت في عقلية الاوربيين " فاخذت اوربا بعد ان قويت علاقاتها التجارية بالشام تسعى الى تقليلها " [٢] كما ان عددا كبيرا من القرى احرق والكثير من العروبات والحيوانات اتلف في اثناء هذه الحوادث .

ولكن هذه المصائب لم تقطع في يوم من الايام التجارة مع البلاد السورية وعبرها وقد اشتهرت عدة " ثغور " بمكانتها التجارية وكانت حلب اهمها اذ كانت ملتقى الشرقيين الذين يحملون البضائع التجارة الصينة والهندية والايرانية والاقمشة ، مع الغربيين وخاصة الفرنسيين واهل البندقية والهولنديين والانكليز الذين يخدمون و " مراكبهم محملة بالعملة " [٣] التي كانت حلب تشهر بانواعها في القرن السابع عشر حتى انهم في كثير من الصفقات كانوا يزنونها بدل عدها [٤] لعظم الصفقات . واشهر تجارة حلب الحرير الوارد اليها من العجم . ويشهد فولني ان اهل حلب كانوا يحتكرون اكثر سكان الامبراطورية العثمانية رقيا وتمدنا ، ويتمتع فيها الاوربيون بحرية واحترام لا يجدونهما في مكان اخر [٥] . وبالرغم مما تعرضت له حلب من ثورات الاشراف والانكشارية وشاغباتهم فقد احتفظت بمركز تجاري ممتاز . فكانت تعتبر المدينة التي تكسب السلطان اكثر من اي بلد غيرها في تركيا . و " يقال ان مكوسها وجزية المسيحيين فيها وفي ضواحيها كانت تبلغ ثلاثة ملايين ليرة وكانت تجارة الفرنسيين معها تبلغ ستة ملايين ليرة سنويا " [٦] . وكانت الاسكندرونة مرفأ حلب لما يتمتع به خليجها من ميزات . لكن مناخها كان رديئا جدا مما جعل بعض التجار يتحولون الى مرفأ اللاذقية التي لاحظ " لورتي " عندما زارها ان " مرفأها ملئ بالمراكب الاوربية وان كثيرين من التجار الاجانب يتواعدون للقاء في هذه المدينة النشيطة العاملة " [٧] .

وكانت البضائع تنقل احيانا من حلب الى طرابلس الشام لتنقل منها الى اوربا . وطرابلس تحوي الموانيء التي تفتقر الاسكندرونة من مناخ صحي وامواج للحماية من القرصان ، ولكن مرفأها مفتوح للرياح وهي

---

(١) غير ٥٨ (٢) كرد علي الجزء الثالث ١٧
(٣) ماسون (القرن السابع عشر) ٣٧١ (٤) المصدر السابق نفس الصفحة
(٥) ماسون (والقرن الثامن عشر) ٢٨٦ (٦) ماسون (القرن السابع عشر) ٣٧٢
(٧) لورتي ، الدكتور ، " سوريا اليوم ، رحلات في فينيقيا ولبنان وبلاد الجليل بين سني ١٨٧٥ — ١٨٨٠ " باريس ١٨٨٤ . ص : ٤٦

بعيدة عن حلب مسيرة خمسة ايام [١] . واشتهرت طرابلس في تجارتها مع الاجانب برمادها وحريرها وقطنها وزيوتها .

اما تجارة دمشق فكانت قليلة مع الاجانب بالنسبة لحلب وكانت صادراتها تمر عن طريق صيدا او بيروت الى البحر واهم ما يصدر من هذين المرفأين القطن والحرير وكانت صيدا مستودعا ترسل اليه البضائع من مختلف نواحي الساحل السوري [٢] ، اما اهمية بيروت فترجع الى قربها من العواصف بينما يسيطر الدروز على منطقة صيدا . وكانت بيروت تصدر اكثر من نصف مجموع ما تصدره الامبراطورية العثمانية من المشروبات الروحية [٣] وتزورها قوافل من دمشق وحلب وتصدر في موسم الحرير بشكل خاص . وقد فضل الفرنسيون في بادئ امرهم صيدا على بيروت لخوفهم من القرصان الذين كانوا لا يفتؤون يتعرضون لها [٤] .

وقد بلغ ما صدر من القطن المغزول والخام من سوريا عن طريق صيدا وحدها حوالي سنة ١٧٨٠ اربعة الاف وخمسمئة بالة اما الحرير فكان اقل اهمية من القطن [٥] .

علاقات فرنسا التجارية مع سوريا ولبنان خلال العصور :

انقسمت التجارة في الشرق الادنى بعد سنة ١٥٣٥ بين الافرنسيين والايطاليين [٦] بفضل الامتيازات بعد ان كان للايطاليين حصة الاسد منها . وبدأت غرفة تجارة مرسيليا ترسل ممثلين لها الى مدن الساحل السوري وخاصة الى صيدا حيث بنوا الخان الكبير [٧] وكذلك في بيروت وطرابلس [٨] ، وكان ذلك في نفس الوقت الذي بدأت فيه فرنسا بادعاء حماية الكاثوليك في الشرق فارادت ان تكون لنفوذها دعامتان دينية وتجارية [٩] .

ولكن انكلترا لم تترك لفرنسا الحبل على الغارب بل قابلت الجاليات الفرنسية بجاليات انكليزية وبدأت الدولتان تتنافسان على التجارة في الشرق ولم تمض سنة ١٧١٥ حتى كانت انكلترا قد احتلت المرتبة الاولى التي كانت تحتلها فرنسا [١٠] .

---

(١) طسون (القرن السابع عشر) ٣٨١
(٢) المصدر السابق ٣٨٧
(٣) رونالي ١٧٣
(٤) طسون (القرن السابع عشر) ٣٨٧
(٥) طسون (القرن الثامن عشر) ٥١٦
(٦) مشحوق ١٣
(٧) فرنو
(٨) طسون (القرن السابع عشر)
(٩) ريستلهوبر ١١٥
(١٠) طسون (القرن السابع عشر) ٥٢٢

ولما جددت الامتيازات سنة ١٧٤٠ ووسعت فيها تلك الحقوق التي نالها الفرنسيون سابقاً [١]، نشطت تجارتهم على اثرها وانتشرت المؤسسات الفرنسية في سوريا وبلغت ارقام المعاملات التجارية بين فرنسا وسوريا خلال الفترة الممتدة من ١٧٧٦ — ١٧٨٧ مئة وواحدا وخمسون مليونا من الفرنكات اشترت سوريا منها بسبعة وثلاثين مليونا من فرنسا [٢]. وقد سبق لنا ان ذكرنا ان نفوذ فرنسا السياسي في الدولة العثمانية اخذ يتضاءل في اواخر القرن الثامن عشر ولكن التجارة الفرنسية بقيت تنال الحماية الكافية، حتى انها بلغت ذروتها عندما كانت سلطة فرنسا في الحضيض [٣] وهذا ما يهم فرنسا من تركيا بالدرجة الاولى.

ويشهد غير الذي كان قنصلا لفرنسا في بيروت وحلب مدة طويلة ان التجارة الفرنسية لم تكن على ما يرام في اواخر القرن الثامن عشر، ولكنها بدأت تنتعش حينذاك [٤] شيئا فشيئا. وفي سنة ١٨٣٨ ثم سنة ١٨٦١ جددت البنود المتعلقة بالتجارة من الامتيازات السابقة. ولا يشك احد بان للامتيازات اليد الطولى في تنشيط هذه العلاقات التجارية ولكن البضاعة الفرنسية لم تستطع الصمود للمنافسة الانكليزية [٥] فبدأت تتدهور وتحولت معظم العلاقات التجارية بين فرنسا والثغور السورية الى عمليات استيراد للبضائع السورية او عبر الاراضي والاسواق السورية. ولم تجدد المعاهدة التجارية الفرنسية المعقودة سنة ١٨٦١ والتي انتهت اجلها سنة ١٨٩٠ وانما عدت باتفاق ضمني من الطرفين [٦].

ويظهر ان التجار الفرنسيين كانوا يقيمون علاقاتهم مع الباشوات لارادة هؤلاء التجار [٧]. كما ان الاهلين كانوا في بادئ امرهم يحسنون الظن بالتجار الفرنسيين ثم جاء بعض تجار اثاروا حولهم الشكوك والحذر [٨] ومع ذلك فقد كان اهل البلاد اجمالا يحترمون الاجانب ويهابونهم لما يتمتعون به من امتيازات ودعم من قناصلهم.

مراكز التجارة الفرنسية وموادها :

كانت اهم صادرات سوريا الى فرنسا الحرير اللبناني [٩] والقطن الخام والمغزول [١٠] والتبغ من منطقة اللاذقية [١١]. وبعض بضائع تاتي من بلاد الفرس وغيرها الى حلب وتنقل منها الى

---

(١) راجع المادة (٢٠) من الامتيازات المذكورة بشأن حرية التجارة والمادة (٥٥) بشأن الاعفاء من ضريبة جد
(٢) ماسون (القرن الثامن عشر) ٥٠٩
(٣) المصدر السابق ٢٧٩
(٤) غير ٦٦ — ٧٣
(٥) المصدر السابق ٧٤
(٦) فرني ٦٢٦
(٧) غير ٥٥
(٨) المصدر السابق ٤٣
(٩) ريستلهوبر ١١٥
(١٠) ماسون (القرن السابع عشر) ٣٨٢ — ٣
(١١) ماسون (القرن الثامن عشر) ٥١٥

العراقي التي سبق لنا ذكرها . فقد بلغت الصادرات من طريق اللاذقية الى فرنسا خلال عام ١٨٩٨ مليونا ومئة وخمسين الفا من الفرنكات والواردات من فرنسا خلال العام ذاته مئة الف فرنك فقط [١] عن طريق هذا المرفأ .

اما طرابلس فيظهر انها لم تكن تهم الفرنسيين كثيرا اذ ان المراكب التي كانت تزورها في العام لم تكن اكثر من اربعة الى خمسة مراكب اثناء القرن السابع عشر وذلك لتكمل حمولتها [٢] . وكان الفرنسيون المقيمون فيها لا يتجاوزون الثلاثة والاربعين شخصا بين سني ١٦٨٥ و ١٧١٩ . وفي هذه السنة اي سنة ١٧١٩ حدثت في طرابلس ثورة نهب على اثرها بيت نائب القنصل الفرنسي وعدد من التجار الفرنسيين [٣] واشهر صادرات هذه المدينة كانت الحرير لمعامل ليون والاسفنج العطار والرمان الى مرسيليا [٤] . ويذكر ماسون ان طرابلس كانت احد مراكز المنافسة بين التجار الافرنسيين والانكليز [٥] . وكانت تحوي فندقا لفرنسا .

اما بيروت وقد اهتم بها الافرنسيون اكثر مما اهتموا بغيرها لانها تحوي عددا من العوارنة المحبين لفرنسا كما ان بقربها عددا من قراهم . وقد استفادت التجارة الفرنسية من هذه العلاقات الودية [٦] . ولذلك انشأ الفرنسيون في بيروت عدة محلات تجارية [٧] كما انشؤوا حول هذه المدينة معامل لتربية دود القز ومنازل اغلبها تملكه الشركات الليونية [٨] . ويلاحظ ان الثوار الدروز سنة ١٨٦٠ مروا ببعض معامل الحرير الفرنسية كالذي في عين حطدة وكان يديره الصيو مورغ والذي في بتاتر ويديره بورتاليس والذي في العتين ويديره غيلتاكيس وغيرها في حمانا دون ان يمسوها [٩] . كانت بيروت لما زارتها مدام فرني تحوي ثلاثة فنادق افرنسية يقطنها ثلاثة اطباء افرنسيين [١٠] . وكانت صادرات فرنسا الى بيروت تتألف من الفحم والقطاعات والآجر والسكر والخرضوات والرفوش والعربات وانابيب الرصاص والحرائر والاصواف والبلد والقهوة والاسحت والاواني الخزفية والمرايا والزجاج . والجدول التالي يساعد على تفهم الحركة التجارية الفرنسية مع بيروت في اواخر القرن التاسع عشر [١١] .

---

(١) فرني ٥٦٣
(٢) ماسون (القرن السابع عشر) ٣٨١
(٣) ماسون (القرن الثامن عشر) ٢٨٧
(٤) لورتي ٦٢
(٥) ماسون (القرن الثامن عشر) ٥٢٠
(٦) المصدر السابق ٥١٩
(٧) غير ٧٢
(٨) لورتي ٧٥
(٩) لوتورنان ٢٥
(١٠) فرني ٨٣ — ٤
(١١) المصدر السابق ٥٦٠

السنة	الصادرات الى بيروت من فرنسا بالفرنكات	الواردات الى من بيروت الى فرنسا بالفرنكات
١٨٩٥	٣٤٠٢٠٠٠	١٢٤٩٩٢٠٠
١٨٩٦	٣٩٨١٦٠٠	١٥١٧٠٤٠٠

اما صيدا فكانت اغلب معاملات الفرنسيين فيها مع الدروز الذين كانوا يظهرون تعلقهم بالفرنسيين[1] قبل ان تمتد اصابع الانكليز الى هذه الطائفة . وكانت صيدا مستودعا مهما للبضائع باعتبارها مركزا للقنصلية الفرنسية على الساحل ثم ما لبثت فكا وبيروت ان احتلتا محلها [2] . اما دمشق فبالرغم مما تنتجه من اسلحة معتبرة وفواكه مجففة ، لم يكن فيها اي افرنسي لما زارها " لوكاس" سنة ١٧١٥ [3] . ولكن لما زارتها مدام فرني في اواخر القرن التاسع عشر ، وجدت فيها طبيبا افرنسيا واحدا [4] كما شهدت بان الانكليز والالمان يسيطرون سيطرة تامة على التجارة ، ولم تجد فيها اي مؤسسة تجارية افرنسية بل بالعكس رات السكان يجدون السكر الافرنسي غاليا جدا رغم اهمية دمشق في صنع السكاكر [5] .

الديون العثمانية [6]

رايها في ما سبق ان تركيا كانت غارقة في مشاكلها الداخلية والخارجية وان نظامها المالي لم يكن يرتكز الى اساس صحيح مما جعلها تجد نفسها في حاجة الى المال تصرفه لسد نفقات الحروب ولصيانة سير العمل في الدوائر وربما لسد حاجات الابهة والحريم في قصور السلاطين . وقد بدأت محاولاتها للحصول على قروض منذ اوائل القرن التاسع عشر ولكنها لم تنجح في ذلك الى ان حلت حرب القريم سنة ١٨٥٤ وكانت فرنسا وانكلترا هما اللتان شجعتا تركيا على خوضها مما اضطر هاتين الدولتين ان تقدما لحليفتهما ما يمكنها من الاستمرار في الحياة بعض الوقت . وكانت كفالة القرض الاول المعقود سنة ١٨٥٤ بفائدة ٦ ٪ خراج مصر ثم تعاقبت القروض وهاك سلسلة منها حتى سنة ١٨٧٤ :[7]

قروض سنتي : ١٨٥٤ ، ١٨٥٥ ، ١٨٥٨ ، ١٨٦٠ ، ١٨٦١ ، ١٨٦٣ ، ١٨٦٥ ،
الدين العمومي ١٨٦٥ ، ١٨٦٦ ، ١٨٧٠ ، ١٨٧١ سندات الخزينة ١٨٧٢ ، ١٨٧٣ ،

---

(١) ماسون (القرن الثامن عشر) ٥١٩ (٢) المصدر السابق ٥١٢
(٣) ماسون (القرن السابع عشر) ٣٨٦ (٤) فرني ٨٤
(٥) ، المصدر السابق ٥٦١
(٦) اعتمدت في اغلب ما يرد في هذا القسم على كتاب الدكتور اديب رواني الا حين يشار الى غيره .
(٧) رواني ٥٢

الدين العمومي ١٨٧٤ .

كانت الحكومة العثمانية كلما حان دفع قسط من احد الديون تضطر لعقد قرض جديد تسدد بجزء منه هذا القسط وتصرف الباقي على مشاكلها وبهذا يزيد الدين . وقد اصبح القسط السنوي المتوجب على الحكومة العثمانية دفعه ثلاثمئة مليون فرنك . ويجب ان نلاحظ ان قيمة اسهم القروض الاسمية كانت تبلغ حوالي خمسة مليارات وربع المليار بينما قيمتها الحقيقية هي حوالي ثلاثة مليارات فقط. وقد رهن خراج مصر لقاء بعض هذه القروض ولكن النظام العالي الفاسد وصرف هذه القروض لا على مشاريع منتجة تسدد نفقاتها وانما على الحروب ومصاريف الدولة العادية جعل الدولة في سنة ١٨٧٥ تجد نفسها عاجزة عن القيام بحاجتها ، وان الاجانب لم يعودوا يعولون الى المجازفة برؤوس اموالهم بعد ان شاهدوا الامبراطورية العثمانية تسير من سيء الى اسوأ ، فاضطرت الدولة الى اعلان افلاسها في ٦ تشرين الاول سنة ١٨٧٥ (١) . ويلاحظ ان وزير الخارجية الفرنسية كان قد نصح الحكومة في مذكرة رسمية سنة ١٨٦٧ بوجوب اتباع بعض التدابير العالية الحازمة ولكن دون جدوى (٢) .

والجدير بالذكر ان المساهمين الافرنسيين كانوا يملكون القسم الاكبر من اسهم القروض العثمانية فلما عرض المستر هاموند الانكليزي سنة ١٨٧٦ مشروعه لتصفية هذه الديون رفضه المساهمون الفرنسيون (٣) . وجاء افرنسي يدعى توكفيل بعرض مشروع اخر سنة ١٨٧٨ يلخص فيما يلي (٤) :

توحيد الديون العثمانية وتخفيضها الى سعر الاصدار مع الفوائد المتأخرة وجعل الفائدة ٥ ٪ (ولم يدخل في مشروعه الديون التي كفلها خراج مصر والتي يملك اسهمها الانكليز) ؛ ولدفع هذه الديون يقترح ان تسلم تركيا :

١ — واردات الجمارك
٢ — بعض الضرائب غير العاشرة (عن التبغ والملح والطوابع والكحول)
٣ — الدخل الصافي لجزيرة قبرص
٤ — خراج بلغاريا
٥ — الزيادة الناتجة عن رفع بدل التعشير

---

(١) روحاني ٦٠
(٢) فان ديك ، ا. د . آ ؛ " الامتيازات " القاهرة ١٨٨٠ ص : ٦٩
(٣) روحاني ١٦
(٤) المصدر السابق ١٦ — ٧

وتتألف لجنة من عثمانيين وفرنسيين وانكليز تعينهم حكوماتهم للاشراف على تنفيذ هذا المشروع وتسلم وادارة المدخول ، واقترح تخصيص قرض عاجل بمئتي مليون فرنك للعثمانيين لتدارك حالتهم الخطرة . لكن تركيا رفضت المشروع حتى لا تسمح للدول بالتدخل المباشر في شؤونها .

وفي مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ قرر المؤتمرون بناء على طلبات الدائنين تحميل قسط من الدين العثماني للولايات التي فصلت عن الدولة العثمانية بموجب معاهدة برلين ، كما اقر المؤتمر اقتراحا بوجوب تأليف لجنة دولية مالية في الاستانة لبحث مسألة مطالب حاملي اسهم القرض العثماني ، واقترح ادمج الوسائل لحل هذه المسألة بما يتفق وامكانيات الباب العالي [1] لكن هذا القرار بقي حبرا على ورق ايضا .

وفي تشرين الثاني سنة ١٨٧٩ تم بين الحكومة العثمانية من جهة ومعظم الدائنين من اصحاب البنوك في غلطا والبنك الامبراطوري العثماني من جهة ثانية اتفاق يقضي بتسليم هؤلاء الدائنين مداخيل بعض الضرائب غير المباشرة تسديدا لديونهم وقد تولى الفرنسي ادارة المشروع [2] . وهذا المشروع ايضا توقف بعد سنتين من اقراره بسبب المطرقة الشديدة التي الزمها بقية الدائنين .

وفي سنة ١٨٨٠ عرضت تركيا اقتراحات لتصفية الديون وفي سنة ١٨٨١ وصل مفوضون عن المساهمين الى الاستانة للبحث في هذه الاقتراحات ونتيجة المفاوضة توصل الجانبان الى اقرار ونشر " قرار محرم " [3] سنة ١٨٨١ الذي اسس بموجبه " مجلس الديون العمومية العثمانية " كما اعيدت هذه الديون التي شملها القرار الى قيمتها الفعلية مع زيادة ١٠ ٪ عن الفوائد المتأخرة فسقط بذلك حوالي نصف الدين من كاهل العثمانيين وكان يبلغ قرابة خمسة مليارات ونصف [4] . والى جانب مجلس الادارة كان يعين مدير عام وقد تسلم هذا المنصب في اغلب الاحيان افرنسي وتولاه بالتتابع : اميلوتو ، تهلي ، كونت دارنو ، بيسار ، ايرنو ، ادمون فراسي وكلهم افرنسيون [5] . كما ان رئاسة مجلس الادارة كانت بالتعاقب بين الفرنسيين والانكليز .

قسمت الامبراطورية العثمانية بالنسبة الى الديون العمومية الى ثلاثة وعشرين قسما رئيسيا كان منها في سوريا اثنان احدهما في حلب والثاني في بيروت ، على رأس كل منهما باش مدير يتصل رأسا بالمدير العام . والمداخيل التي كانت تخضع لهذه الديون هي : رسوم الصابون وعشر الحرير ورسوم الكحول والمشروبات الروحية والطوابع كما احتكرت الملح والتبغ [6] .

---

(١) روماني ١٠١
(٢) المصدر نفسه ١٠٤ — ٧
(٣) المصدر نفسه ١٠٨ — ٩ (عدل هذا القرار سنة ١٩٠٣ ، راجع روماني ٢٠٤)
(٤) المصدر نفسه ١١٨
(٥) المصدر نفسه ١٦١
(٦) المصدر نفسه ١٦٤

ولم تنقطع القروض في عهدي عبد الحميد الثاني ومحمد رشاد بل اضطرا لمتابعة سياسة اسلافهم ولكن اغلب القروض الاخيرة حولت للمشاريع الاصلاحية وخاصة مد الخطوط الحديدية [١] . كانت فرنسا تملك سنة ١٨٨٤ ٩٩ ٤ ٣٩ ٠/٠ من اسهم الدين العثماني وفي سنة ١٨٩٨ اصبحت تملك ٨٧ ٤ ٤٤ ٠/٠ وبقيت نسبة اسهمها تزداد حتى الحرب العالمية الاولى [٢] . ولا شك ان هذه القروض كانت ذات اثر بعيد في تصريف السياسة العثمانية ؛ فلقد كانت مضطرة لمراعاة دائنيها ؛ تخاف ان يمتنعوا عنها قروضهم في المستقبل كما حدث يوم كانت الجيوش الفرنسية في الساحل السوري سنة ١٨٦٠ الا لم تجبرها الحكومة العثمانية آنذاك على التشدد بالمطالبة بالجلاء العاجل لانها كانت تريد عقد قرض في فرنسا [٣] ؛ وكما حدث سنة ١٩١٣ عندما كان مراقبوه وزيرا للخارجية واشترط على الحكومة العثمانية ان تسوي مشاكلها اولا مع الفرنسيين وخاصة شركة دمشق — حماه وتمديداتها لتنال القرض [٤] . وهذه القروض الدولية نادرا ما تخلو من مشاكل السياسة والعواطف خاصة عندما يكون المدين بلدا مأخوذا كتركيا [٥] . ولا شك ان هذه القروض وهذا التدخل الاجنبي السافر لاستيفائها يظهران قوة الاجانب ونفوذهم [٦] لدى السكان ؛ كما يظهر ضعف الدولة العثمانية وذلها . وقد اصبحت الشركات والمصارف لا تقبل باقراض تركيا الا اذا استلمت ادارة الديون العمومية امر القرض بل اصبحت تركيا اذا ارادت زيادة ضريبة ما ؛ كتعديل رسوم الجمارك ؛ فالدول لا تقبل الا ان تتولى ادارة الديون العمومية قبض هذه الزيادة [٧] ؛ مما جعل الاتراك كالاسرى ضمن بلادهم او كالمحجور عليهم من السفهاء او القاصرين الذين يحتاجون الى اولياء يقومون لهم شؤونهم ويديرون لهم اعمالهم . وكيف بمزيد من شعوب جاهلة كما كانت حالة شعوب الشرق الادنى آنذاك ؛ الا تتجه نحو الغرب بمدارسه وارسالياته ولبذه كل السيطرة والسلطة بفضل موارد حكوماتها لها ؟

الشركات الافرنسية في سوريا : شركة طريق بيروت — دمشق

قلنا سابقا ان الاجانب لم يكن لهم قبل سنة ١٨٦٧ حق التملك للاموال غير المنقولة في الامبراطورية العثمانية ؛ ومع ذلك فقد منحت الحكومة العلية الى شركة افرنسية سنة ١٨٥٧ امتياز

---

(١) راجع بشأن هذه القروض روطي ٢١٨ و ٢٦٥ ؛
(٢) المصدر السابق ١٣٥ (٣) العصور السياسية الجزء الثالث ٤٢١
(٤) الخيادس ؛ الوتير ؛ " الخطوط الحديدية في سوريا ولبنان " بيروت ١٩٤٤ ص : ٧٥
(٥) بلوردييل (٦) فرني ١٨٠
(٧) بلوردييل ١٥٤

شق طريق صالحة لسير العربات بين بيروت ودمشق وكان المهندس ادموند برتيس هو الذي امضى الاعناق المؤلف من ٢٣ مادة وجعلت مدة الامتياز خمسين عاما [١] . وقد سمحت الحكومة بشق هذه الطريق عبر جبال لبنان والذي يبلغ طوله مئة واثني عشرة كيلومترا لان بيروت تولت منذ اوائل القرن التاسع عشر مكانة صيدا في وصل دمشق بالبحر [٢] . لقد اعاقت حوادث الستين سير الاعمال بل اضطرتها الى التوقف ولم يبدأ الطريق بكامله مهمته الا سنة ١٨٦٣ . وكانت هذه المحاولة من اروع الاعمال التي قام بها الفرنسيون في الشرق [٣] . لقد اثرت هذه الطريق في خلق نشاط تجاري وصناعي في بيروت ودمشق على السواء وكفت مرفأ بيروت من التغلب نهائيا على مرافئ حيفا وصيدا وطرابلس . واصبح بالامكان نقل الادوات الصناعية الثقيلة بواسطة العربات وهذا ما لم تستطعه البغال سابقا . ولاعطاء فكرة عن النتائج على هذه الطريق نقدم احصاء عن عام ١٨٦٩ :

عن الطريق حوالي تسعة ملايين اقة تصفها في الاستيراد والاخر في التصدير

بواسطة المكاره حوالي اربعة ملايين ونصف اقة تصفها في الاستيراد والاخر في التصدير [٤] .

وبفضل هذه الطريق انشئت في شتورا مستعمرة زراعية افرنسية [٥] لان شتورا كانت مركزا للمصالح البيطرية للشركة ومركزا لحفظ العلف لدوابها وهذا ما حمل موظفي الشركة على شراء واستئجار املاك في هذا المركز اداروها بانفسهم على الاساليب الحديثة بالنسبة الى ذلك العهد . كما ان هذه الطريق جعلت السياح يزورون دمشق بعد ان كانوا يتحاشونها فادخلتها شركة كوك للسياحة في برامجها حوالي سنة ١٨٦٦ . وقد استلزم وجود السياح انشاء مقاهي ثم فنادق في اخر الطريق على ضفتي نهر بردى فانشئت لوكندة بالميرا ولوكندة الجديدة واوتيل دمشق [٦] .

شركة خط حديد بيروت — دمشق — حوران

بالرغم من نجاح المشروع فان الرغبة في الاستفادة من الخطوط الحديدية حوالي سنة ١٨٩٠ قامت في طول البلاد العثمانية وعرضها ، وصارت الاتجاهات توجه الى شركة طريق بيروت — دمشق ، والمعاكسات تصادفها ما اضطرها لبيع امتيازها الى شركة الخطوط الحديدية العثمانية بيروت — دمشق — حوران ، وذلك عام ١٨٩٢ [٧] .

---

(١) تريس " مجلة الجغرافيا " ٢٣٥
(٢) المصدر السابق ٢٢٧
(٣) فرنو ٢٣٨
(٤) تريس " مجلة الجغرافيا " ٢٤٨
(٥) المصدر السابق ٢٤٨
(٦) المصدر السابق ٢٤٩
(٧) المصدر السابق ٢٥٠

كانت شركة طريق بيروت — دمشق تفكر في تحويل الطريق الى خط حديدي سنة ١٨٩١ . وفي تلك السنة تألفت شركة ثانية لمد هذا الخط ونال الامتياز حسن بيهم ثم تنازل عنه للشركتين اللتين اتحدتا سنة ١٨٩٢ وقد بدأ العمل على الخط سنة ١٨٩٥ وطوله ١٤٧ ك.م.[١] . كما ان يوسف مطران الذي نال امتياز حافلات دمشق مع حق تسيير خط حديدي بخاري بين دمشق وزيزب بطول ١٠٣ ك.م. سنة ١٨٨٨ عجز عن اتمام العمل فباع امتيازه لشركة خط حديد بيروت — دمشق التي اتمت العمل سنة ١٨٩٤ [٢] . وعرض هذا الخط (بيروت — دمشق — زيزب) ١٤٠٥ مترا يرتفع حتى ١٤٨٦ مترا عن سطح البحر مما اضطرهم ان يضعوا له مسننا على طول اربعين كيلومترا [٣] . وقد دمر خط دمشق — زيزب اثناء الحرب العالمية الاولى .

خط دمشق — حماه

وفي سنة ١٨٩٢ عولت الحكومة العثمانية على منح امتيازات جديدة للخطوط الحديدية فسعى بول كامبون سفير فرنسا في الاستانة ليحصل على امتياز لشركة خط حديد بيروت — دمشق — حوران لتمديد خطوط في سوريا الشمالية . وقد نجح في نوال امتياز تمديد خط حديدي هادي بين دمشق — حمص — حماه — حلب — بيره جك ، ولكن عن يد يوسف حبيب مطران الذي نال ٢٧٣٤٠٠٠ فرنكا لقاء تنازله عن امتيازه الذي كانت مدته تسعة وتسعين عاما وذلك سنة ١٨٩٣ . وقد اشترط في العقد ان لا تقل الضمانة الكيلومترية عن ٧ ٠/٠ من راس المال المدفوع وان لا تزيد عن ١٢٥٠٠ فرنكا بالكيلومتر. ولتنفيذ هذا الضمان وضعت الحكومة العثمانية اعشار السناجق التي سيخترقها الخط كالتالة على ان تسلم لادارة الديون العمومية [٤] والسناجق هي : دمشق وحماه وطرابلس واللاذقية وعكا وحوران وتبلغ اعشارها ٤٣٠٠٠٠٠ فرنكا [٥] .

اختلفت الشركة مع الحكومة على مبدأ الخط فاصرت الحكومة على ان يكون مبدؤه دمشق وذلك لاغراض حربية ، وكان الالمان حينذاك قد مدوا اصابعهم عميقا في السياسة العثمانية . واصرت الشركة بان يبدأ الخط من رياق . وفي سنة ١٨٩٦ وافقت الحكومة على وجهة نظر الشركة على ان يؤجل العمل خمسة اعوام ، وصدرت مذكرة بذلك في اول سنة ١٨٩٧ [٦] . وقد تراكمت الخسائر على الشركة فلم تواف سنة ١٩٠٠ الا وقد بلغت خسائرها عشرة ملايين فرنكا وذلك بسبب وعورة المسالك وفقر البلاد وبعد المحطات

---

(١) الفريادس ٤٤ (٢) المصدر السابق ٤٣
(٣) سامي ١٥٥ (٤) ريحاني ٢١٤
(٥) الفريادس ٥١ — ٢ (٦) المصدر السابق ٥٤

النهائية عن المدن [١] ما اضطرها ان تسلم للبناء العثماني ولشركة حسر الخطوط الحديدية سنة ١٩٠١ تنفيذ خط رياق — حماه وادارة الخطوط السابقة . وقد افتتح خط رياق — حماه سنة ١٩٠٢ وفي سنة ١٩٠٥ تم الاتفاق على تمديد هذا الخط حتى حلب وافتتح الخط الحديدي سنة ١٩٠٦ [٢] كما ان شركة الخطوط الحديدية اتفقت مع شركة المرفأ في بيروت على تمديد الخط من المحطة الى المرفأ لتسهيل الشحن والتفريغ وقد تم التمديد سنة ١٩٠٣ وحينذاك بدأت الشركة تجني ارباحها اذ بلغت مرابحها في تلك السنة اكثر من مليون ونصف من الفرنكات [٣] .

رأى السلطان عبد الحميد ان المصالح السياسية والعسكرية للامبراطورية العثمانية تستدعي بناء خط يربط دمشق بالمدينة المنورة فقام يدعو اليه بعد ان بدأ بنفسه الاكتتاب وتوالت عليه من شتى انحاء العالم الاسلامي التبرعات السخية فكانت واسطة لتقوية مركز السلطان كخليفة ولتأمين خط حديدي يؤمن نقل الحجاج في الايام العادية والجنود والاعدة في غيرها . ورأت شركة خط حديد بيروت — دمشق — مزيريب ان هذا الخط يهدد مصالحها بين دمشق ومزيريب لانه لا يبعد عن خط الشركة في بعض النقاط اكثر من عشرة الى اثني عشرة كيلومترا فطلبت من الحكومة العثمانية ان يبدأ الخط من مزيريب في حوران بدلا من دمشق ولكن الحكومة العثمانية رفضت لان دمشق مقدسة ايضا بنظر المسلمين ، وعرضت الشركة ان تبيع خط دمشق — مزيريب الى الحكومة بسعر كلفته فرفضت الحكومة ان تدفع اكثر من نصف ثمن الكلفة . ثم اتفق الطرفان على ان تدفع الحكومة للشركة مبلغ مئة وخمسين الفا من الليرات العثمانية لقاء الاضرار التي نالت الشركة من انشاء الخط الحجازي وكان ذلك سنة ١٩٠٥ .

تمديدات اخرى :

وفي سنة ١٩٠٩ اضطرت الشركة السابقة الى انشاء خط حديدي عادي بين حمص وطرابلس بدون ضمانة كيلومترية لان الحكومة هددتها بتحويل الامتياز الى شركة اخرى تقبل بذلك ان لم تشأ ان تفي الشركة بتعهداتها . وطول هذا الخط (١٠٢ كم) [٤] . كما اتفقت هذه الشركة في نفس السنة مع شركة حديد بغداد ان تكون حلب نقطة الاتصال وان لا تقوم منافسة بينهما [٥] . فاصبح مجموع خطوط شركة دمشق — حماه وتمديداتها ٦٨٣/٢١٦ كم .

---

(١) فوزي ٢٠٧
(٢) سامي ١٥٥
(٣) الفريادس ٦١
(٤) المصدر السابق ٦٥
(٥) المصدر السابق ٦٧

كما ان شركة اخرى نالت لتمديد ترامواى على الساحل بين صيدا وطرابلس ولكنها لم تمد سوى عشرين كيلومترا منه بين بيروت والمعاملتين سنة ١٨٩٨ (١) وكان ٣٥ ٪ من راس مال الشركة افرنسيا . وهذه الشركة لم تنجح (٢) .

شركات اخرى :

لم تكن شركة الخطوط الحديدية في سوريا (دمشق — حماه وتمديداتها) الشركة الافرنسية الوحيدة وان كانت اقوى هذه الشركات وابعدها اثرا بما لها من ضمانة ونفوذ ، فقد نال مهندس افرنسي يدعى عيفان امتياز توزيع المياه في بيروت فنالت شركة يمدأ عيفان العمل سنة ١٨٧٥ الكنها لم تلبث سنة ١٨٧٦ ان تنازل عن الامتياز لشركة انكليزية (٣) كما نال يوسف مطران امتيازا لبناء مرفأ لبيروت سنة ١٨٨٨ ثم سلمه لشركة افرنسية نالت لهذا الغرض (٤) فبنت المرفأ والمستودعات وكانت من اكبر اسباب نهوض بيروت وعمرانها .

المزاحمة الاجنبية :

قامت في وجه التجارة الفرنسية والشركات الفرنسية مزاحمة فعالة من جانب بقية الدول العظمى وقد اعترف الفرنسيون بتفوق التنظيم الانكليزي والهولندي في التجارة على تنظيم تجارة الفرنسيين (٥) . وكان الدروز يدعمون الانكليز في القرن التاسع عشر كما مر معنا منافسة للموارنة الذين يدعمون النفوذ الفرنسي . اسس الانكليز المحلات التجارية والعلاجي والمدارس والكنائس (٦) تماما كما فعل الفرنسيون ما اصبح يهدد مصالح هؤلاء . ولم يكن الانكليز الوحيدين في منافستهم فقد جاء دور الالمان الذين استطاعوا مركز فرنسا منذ سنة ١٨٨٠ في بيع الاسلحة والاعدة للعثمانيين ، كما اهتموا بالمطاعم والفنادق في سوريا وفلسطين وكادوا يحتكرونها (٧) .

لقد اصبحت كافة الدول تتمتع بنفس الامتيازات فقامت تتنافس فيما بينها على مد اصابعها ونفوذها وكانت فرنسا — كما هي حالها اليوم — غارقة في مشاكلها الداخلية (٨) فلا تلبث وزارة ان تقوم حتى تسقط بسبب تنافس الاحزاب والانشغال بغير سوريا من المناطق .

---

(١) ساهي ١٥٦
(٢) الفتريادس ١٤٢
(٣) فرني ٤٤٧
(٤) الفتريادس ٤٣
(٥) طسون (القرن السابع عشر) ٥٢٠
(٦) كريسليني ، كونت ، " مصالح فرنسا في سوريا " باريس ١٩١٣ . ص : ١٦
(٧) فرني ٤٣
(٨) غالب ١٠٧ — ٨

ورأت الحكومة العثمانية هذا النزاع فاعجبها لانها املت ان تخلص بواسطته من كابوس الامتيازات والوصاية الاجنبية ، غير غافلة بما يمكن ان تكون نتائج هذه المنافسة التي عجلت خاصة في المشاريع الكبرى من تمديد للخطوط الحديدية وانشاء للمرافئ والطرق واستثمار للمناجم وتجفيف للمستنقعات وتوزيع للمياه او الانارة (١) . ولكن هذه المشاريع واعمالها كانت اساسا للتطلعات لادعاءات الفرنسيين بان لهم مركزا ممتازا في سورية ، فقد مدوا خطوطها الحديدية باموالهم وبنوا مرفأ بيروت الذي اصبح مرفأ سوريا كلها . وقاموا باعمال عمرانية في بيروت كما ان تأسيسهم البيوت التجارية في كثير من المدن العثمانية وحمايتهم الكيوكالجر الاوفر من اسبهم الديون العثمانية كانت اساسا للقول بان " حماية مالية حلت محل الحماية الدينية التي حفظت نفوذ فرنسا في الشرق زمنا طويلا " (٢) . لقد اكمل الرأسمال الفرنسي وساهمة المهندسين الفرنسيين عمل المرسلين الذين مهدوا بنشر الثقافة الفرنسية (٣) لادعاءات فرنسا في سوريا ولبنان .

اعترف الاوربيون بانهم يقومون بدور الوصي على تركيا كما يتبين من كلمة الدون دبكير ، وزير خارجية فرنسا في ١٠ كانون الثاني سنة ١٨٧٦ ومن كلمة اللورد دربي بعد ذلك بثلاث سنوات (٤) ، ولكن هذه الوصاية وهذا التدخل كانت ولا شك من اهم الاسباب في ايقاظ الشعور القومي في الكتل العنصرية التي شملتها حكومة السلطان (٥) ، واذا كان الاوربيون قد مهدوا بتدخلهم في حقلي التعليم والاقتصاد خاصة والسياسة عامة الطريق لاستعمارهم فان هذا التدخل كان من الاسباب التي حملت الشعوب العثمانية على السعي للاستقلال خوفا من الوقوع تحت مراقبة المستعمرين الاوربيين .

رأس المال الوطني :

رب متسائل يقول ولكن كيف يتمكن الاجانب ان يتكلموا لفظات الاسطار فيهاجرون الى بلاد غريبة ويمزوا الوطنيين المقيمين الذين يعرفون بعضهم بعضا ويستطيعون اذا عرف بضائعهم بسهولة اكثر . الواقع ان هناك اسبابا عدة ساعدت الاجانب ورأس المال الاجنبي على النمو والاشعاع في البلاد العثمانية منها :

أ — رغبة المواطنين في البضائع الغربية واذا امكن عن يد الغربيين انفسهم .

ب — الحماية التي كان يتمتع بها الاجانب من دولهم .

ج — الامتيازات التي اعفت الاجنبي من " التكاليف العرفية " وهي اعتباطية في غالب الاحيان ، وجعلته يدفع وسطا مخفضة في الجمارك كما يعفى من الجزية وغير ذلك مما يدفعه ابناء ملته من العثمانيين .

د — خوف العثمانيين اذا ابرزوا اموالهم ان يتعرضوا للبلص والضرائب المختلفة الشديدة ، فضلوا

(١) فرني ٢٠٥ (٢) بامبردبل ٥ (٣) رودر ٥٣
(٤) بامبردبل ٢٦ (٥) الشهاب / بامبردبل / ٧٧ (٦) الشهاب س ١٣

ان يتظاهروا بالفقر وان كانوا اغنياء .

٥ — فضل كثير من العثمانيين ان يحمل باسم احد الاجانب ليقال الامتيازات التي يحق لهذا الاجنبي التمتع بها .

٦ — فقدان الخبرة العلمية العظمة بين اهل البلاد وافتقارها الى اختصاصيين في كافة الفروع مما جعل التجارة والصناعة مجازفة .

ولا شك ان الناس عمدوا حينذاك ان يحبسوا اموالهم ويخبئوها بدليل ما ظهر منها بعد الحرب العالمية الاولى . ولا يزال كثير من اغنياء البلاد السورية يجرون على عادة حبس اموالهم تحسبا للطوارئ اودرءا للمجازفات وذلك ولا شك من ارث ذلك العهد العثماني . كما انهم يفضلون البضائع الاجنبية على بضائع بلادهم وان كانت هذه افضل وذلك على ما اعتقد من بقايا ذلك العهد ايضا .

الارساليات والعلاقات الثقافية

بعد ان انتهت الحروب الصليبية بفشل الغرب الحربي في التسلط على الشرق ، وجهت الكنيسة والدول الغربية همها لتنظيم حملة تبشيرية عسى ان يتم الاخضاع حيث فشل السيف فتعود هذه البلاد السورية التي كانت مهد المسيحية الى ديانة المسيح [١] وكما ساهمت فرنسا ، ابنة الكنيسة البكر ، في الحملات الصليبية بالقسط الاوفر ، كذلك كان لمبشريها حظهم الكبير في حمل رسالة الصليب الى الشرق عامة وسوريا خاصة . لقد عرفوا كيف يعودون الى سوريا بعد ان غادرها اسلافهم لاعادة الثقافة التي مهدها [٢] .

قلنا سابقا ان الاجانب لما اخذوا يفدون الى سوريا كانوا يعيشون متكتلين بشكل جاليات ، فكان لكل جالية رجل دين يقيم الصلوات تتفق عليه الجالية كما ساعد ماديا الرهبان [٣] الذين باتوا للتنسك في الجبال القريبة من مركزها .

وقد ضمنت الامتيازات الافرنسية للمرسلين الكاثوليك سلامتهم وسلامة كنائسهم واديارهم [٤] كما سمحت لهم بحرية التنقل في اجواء الامبراطورية العثمانية [٥] وبحرية ممارسة شعائرهم وطقوسهم في اماكنهم الخاصة . كما تمكن الافرنسيون فيما بعد من ان يحصلوا لهم الاعتراف الجمركية التي ينالها الموظفون القنصليون بشأن الادوات والافراس التي تحتاجها اديارهم ومؤسساتهم الخيرية بالاضافة الى ما يحتاجه الرهبان انفسهم . [٦]

لقد سعت فرنسا ولا شك في امتيازاتها الاولى ان تسجل حقوق هؤلاء المرسلين في الحماية بدافع الدين والغيرة المسيحية ، لكن فكرة الاستغلال السياسي ما لبثت ان داعبت فكر الموجهين للسياسة الفرنسية كالاب جوزف دي تراميلي ذي النفوذ الواسع في ايام لويس الثالث عشر ، في اوائل القرن السابع عشر فاخذ المبشرون يتشجعون يتوافدون الى لبنان بشكل خاص ويستقرون بين الموارنة ، واذا كانت كثرتهم في بادئ الامر من الايطاليين الفرنسيسكانيين فانها ما لبثت ان اصبحت للكبوشيين واليسوعيين الافرنسيين [٧] . لقد اهتم المبشرون بلبنان لانهم اعتبروه " ملجأ لطائفة مسيحية وممرا للحجاج الصافرين الى القدس " [٨]

---

(١) بيطار ٧٨ — ٧٩
(٢) طالب طالب ١١١
(٣) هاسون (القرن السابع عشر) ٤٥٦
(٤) المواد ٨٢ و ٨٣ من امتيازات سنة ١٧٤٠
(٥) المادة ٦٣ من امتيازات سنة ١٧٤٠
(٦) راجع اطالية ١٨٦٩
(٧) بيطار ٧٧
(٨) المصدر السابق ٧٥

ولان الاباء الفرنسيسكانيين كانت لهم كنيسة في بيروت واخرى في طرابلس لتلقيهم فالفهم الكرسي المقدس بمهمة الاتصال بالطوائف والسهر عليهم . ويقول هؤلاء الاباء ان اقدم وثيقة لديهم تعود الى سنة ١٤٨٤ ايام المماليك الذين اعتبروا هؤلاء الاباء ملكي جبل الصليب (١) .

ويلاحظ ان انتشارهم في سوريا الداخلية كان ولا يزال اقل مما هو عليه في الساحل . فلم يكن في حلب سنة ١٦٧٠ غير اربعة رهبان فقط (٢) ، وحتى في سنة ١٦٨١ لم يكن فيها سوى الاربعين مع ان حلب اكبر المدن السورية وملتقى القوافل التجارية من شرقية واوربية . وكان يقطنها كثير من المسيحيين والاجانب ، اما في بعض المناطق فلم يستطع العشرون العمل الا في اواخر القرن التاسع عشر كما حدث لليسوعيين الذين جربوا منذ سنة ١٨٣٤ التسلل الى حوران فلم ينجحوا في ذلك حتى كانت سنة ١٨٨١ حين تمكنوا من تأسيس مدارس لهم في بعض القرى (٣) .

اخلاق المرسلين :

" اضطر القناصل في احوال عديدة ان يكتبوا الى الوزير طالبين منه التدخل لتحسين سلوك المرسلين او تحسين انتقائهم ، وقد حدث ان اضطر القناصل لاستعمال الشدة ضد المرسلين " (٤) وفي هذا النص ما يشرح بعض التصرفات بك غير المناسبة التي كان يقوم بها المرسلون ، ولربما كانت منافسات المرسلين بين جماعاتهم المختلفة من هذه التصرفات التي شكا منها القناصل . وقد شاهد الدكتور لورتي اثناء زيارته سوريا هذه المنافسة . وعلق عليها بقوله " ان العرق الفينيقي البارع يحسن استغلال هذه المنافسات على احسن وجه " (٥) . وربما امكن ان نعزو الى هذه التصرفات غير اللائقة من رجال كهنوت ، يفرض فيهم ان يكونوا قدوة في السلوك ، فشلهم في تنصير الناس واكتفاءهم " بعمل الخير " (٦) اذ ان الذين تنصروا على يد المرسلين قليلون على ما يظهر .

اثر المبشرين في حياة البلاد الداخلية :

كان المبشرون هم الذين يتولون تربية التراجمة واعدادهم وتدريب معاوني القناصل الفرنسيين للشرق . فقد استلم هذه المهمة بادئ الامر الاباء الكبوشيون في القسطنطينية ثم تسلمها اياها اليسوعيون ومن بعدهم المارونيون (٧) ، ولا شك ان هؤلاء التراجمة والموظفين القنصليين الذين كثيرا ما اصبحوا قناصل

---

(١) لبير ١١٦ (٢) ماسون (القرن السابع عشر) ٤٥٧

(٣) " اليسوعيون في سوريا بين سني ١٨٣١ — ١٩٣١ " كراسات اصدرتها جامعة القديس يوسف في بيروت سنة ١٩٣١ بمناسبة مرور مئة عام على بدء اليسوعيين العمل في هذه البلاد . الكراسة العاشرة ص: ٦٣

(٤) ماسون (القرن الثامن عشر) ١٦١

(٥) لورتي ٧٥ قد راجع ايضا من هذه المنافسات ماسون (القرن الثامن عشر) ٥٢٧

(٦) بوتراند ، لويس ، " السراب الشرقي " الطبعة الحادية عشرة ، باريس ١٩٣٤ . ص . ٤٢٣

(٧) ماسون (القرن الثامن عشر) ١٤٦ — ٨

كانوا على جانب من الاهمية عظيم في اتصالات رؤسائهم وتسيير دفة الادارة القنصلية في البلاد . وهكذا يكون المرسلون قد اثروا بصورة غير مباشرة في توجيه السياسة الفرنسية في البلاد .

ويبدو ان من بين القلائل الذين تعمروا على يد المبشرين بعض الامراء من آل شهاب حوالي سنة ١٧٥٥ وبعضهم قسم من آل ابي اللمع ؛ فعند الدروز تتغير امزجتهم هؤلاء خيانة لمذهبهم ؛ واعتبر بستلهوبر هذا الحدث منشأ للعداوة بين الدروز والموارنة [١] اذ ان المبشرين كانوا يحتقرون من نفس ديانة الموارنة ومن انصارهم .

ثم يبدو الزمن فترى هؤلاء المرسلين يحدون طانيوس شاهين بالمال في ثورته ضد مشايخ آل الخازن والاقطاعيين [٢] وهكذا يصبحون في وسط المعمعة ويتدخلون مباشرة بدل ان يكونوا من وراء ستار .

كما انهم يشعرون بالاثر العميق للاكليروس في اعماقهم لان رجال الدين في الشرق كانوا " يحتلون القمة في نظام الطبقات الاجتماعية "[٣] . فيعتني المبشرون بحشمة الاكليروس الكاثوليكي الذي يمكن ان يصبح لهم خير عون . ويرى احد الكتاب المحدثين ان نفوذ الاوربيين والمبشرين لم يستفحل امره الا حين تولى السلطان محمود الحكم حين " اقبل المبشرون والدعاة بجيشهم الجرار ودخلوا من طريق التعليم والمدارس والاعمال الخيرية وتحسين الوعي الاسلامي "[٤] ويتهم هذا الكاتب السلطان المذكور بانه " اوربي مسيحي في صورة مسلم " . لقد سعى السلطان محمود للاصلاح فاتهمه العلماء في دينه وتقدم عليه الشعب ولم تنجح اصلاحاته في الواقع واكمل فرس البذور لمن خلفوه . ومما ظاهر خيرا تساهله مع المرسلين لينشر الثقافة في امبراطوريته ويلحق بالامم الاوربية الناهضة .

خدمة المرسلين لفرنسا وتعلقهم بها :

بعد ان تغلغل المبشرون في المجتمع السوري ؛ اخذوا يطنبون في مدح ملك فرنسا الذي لا يقهر ؛ وفي مدح جيوشه التي تحمل دائما روح الصليبية مما جعل الموارنة يتجهون نحو هذا الملك — لويس الرابع عشر — ويقدمون دلائل ولائهم وحبهم [٥] . كما راح المرسلون يخدمون فرنسا بنشر لغتها بين السوريين ؛ واللغة واسطة قوية جدا في نقل النفوذ الاجنبي الى الشرق [٦] ؛ وساعد المرسلون

---

(١) بستلهوبر ٢١ (٢) المحررات السياسية الجزء الاول ٣٧١
(٣) فرشتو بيرون ٧
(٤) العرفي ؛ محمد سعيد ؛ " سر انحلال الامة العربية ووهن المسلمين " دمشق سنة ١٣٥١ هـ ص : ٢٣٠ (٥) بستلهوبر ١٢
(٦) فرني ٨٥

التجارة الفرنسية بفتح الطريق امام التجار فكانهم دوما طليعة يحملون معهم الاسم الفرنسي ويقدمون للتجار المعلومات المفيدة كما يسهلون اتصال التجار بالشعب بواسطة هذه الطبقة التي تتعلم في مدارسهم وتتصل بموسساتهم (١) .

لقد قام المرسلون بعملهم الهادىء بينما كان التجار وارباب الاموال والشركات ورجال السياسة يعملون كل ما في وسعه لدعم النفوذ الفرنسي ، ولكن مدارس المرسلين ومستشفياتهم وموسساتهم العديدة المنتشرة في جميع الارجاء السورية كانت اقوى عوامل تأثير السياسة الفرنسية (٢) في هذه الربوع . وهذه الموسسات نفسها حملت بعضهم الى القول " ان الشرق قد ربي في احضان فرنسا " (٣) . ولذلك لا نستغرب ان نرى الحكومات المتعاقبة في فرنسا ، رغم الانقلابات والرجات العنيفة التي احدثتها في داخل البلاد ، تأمر ممثليها السياسيين بمتابعة السياسة التقليدية في العناية بالمرسلين في الشرق وحضور حفلاتهم وطقوسهم بكل احترام وذلك في اثناء الثورة وبعدها حتى الحرب الكبرى بينما كان رجال الثورة يحدون الاساقفة وينفون الرهبان (٤) .

وقد جعل لبنان مقرا مفضلا للمرسلين واغلبهم افرنسيون مما زاد في نفوذ فرنسا عن طريق نفوذ مرسليها (٥) . وربما كان الفضل في ذلك معظمه يعود الى هولاء السفراء المضطرين في ربط عجلة العوارنة بعجلة فرنسا وجعلهم يلجوئون اليها كما اسلفنا وتدعي هي حمايتهم مستفيدة من ذلك حق التدخل في شوئون البلاد في بعض الحالات .

واخيرا اود ان اورد قصة عن احد هولاء المرسلين الى سوريا تثبت صدق اخلاصهم وخدمتهم لفرنسا وهي قصة الاب سارلوت رئيس كلية عنطورا الذي جند اثناء الحرب العالمية الاولى وارسل مع فرقته الى ارواد منذ اول ايلول سنة ١٩١٥ فقام بخدمات جلى للجيش الفرنسي اذ كان يترايا يرى السوريين وينزل الى الشاطيء ليجمع المعلومات عن جيوش اعدائه (٦) وذلك بفضل اتصالاته السابقة بالسوريين وتلاميذه القدماء . ولا اريد ان اتخذ هذه القصة ذريعة لاتهام المرسلين الفرنسيين بالتجسس لحساب دولتهم قبل الحرب العالمية الاولى ، اذ لم يكن في الواقع هناك شيء يستحق الذكر وانما مما لا مراء فيه ان هولاء المرسلين كانوا يشعرون بمصالح وطنهم ويخدمونها .

---

(١) ماسون (القرن السابع عشر) ٤٥٩
(٢) غالب ١١١
(٣) فونتو بيرون ٢
(٤) ميلما ، جان ، " عند مسيحيي الشرق " ص: ٢١ باريس ١٩٢٩ .
(٥) ريستلهوبر ٢٢
(٦) ميلما ٤٥ — ٦

تقدير لجهودهم :

ان فضل المرسلين في نقل التقاليد الفرنسية الى سوريا لا يمكن انكاره وقد شهد به منافسو الافرنسيين انفسهم واليك نقلا مما كتبته جريدة " لا ستامبا " الايطالية بتاريخ ٥ نيسان سنة ١٩١٤ لمراسلها "بفيوني" :

" لقد اصبحت فرنسا مسيطرة تماما في سوريا التي تتغلغل فيها النفوذ الافرنسي حتى العظم ؛ واداة الافرنسيين في ذلك هي المدرسة ؛ فكل السوريين المثقفين من مسلمين ونصارى يتكلمون ويفكرون بالافرنسية . واقوى وسائل التأثير الافرنسي تفقد اهميتها تجاه هذا الجيش من المرسلين الذابحين في سوريا هادئين رزينين ؛ يبشرون النخبة العربية ثقافتهم فيؤدون بذلك احسن عمل تدخل سياسي يمكن لدولة ان تأمله " (١) والاستاذ حوراني (٢) يؤيد هذا الرأي ويعتبر عمل المرسلين اساسا لكسب فرنسا لسوريا ولبنان للحضارة الفرنسية .

تأييد فرنسا للمرسلين :

رأينا ان المرسلين كانوا يهتمون بمصالح فرنسا فكان لا بد للحكومات الفرنسية من النظر بعين العطف الى هذه الجماعة التي تعمل متطوعة لا لتنال ثواب الحكومة الفرنسية وشكرها . وقد كانت الحكومات الفرنسية ترى لنفسها الحق بحماية الكاثوليك فوجدت في هؤلاء المرسلين احسن واسطة تربط بين فرنسا وهؤلاء الكاثوليك وتجعلهم يتجهون نحوها كما تتجه هي نحوهم (٣) ؛ وقدرت الحكومة الفرنسية قبل غيرها اهمية الروابط الثقافية في دعم النفوذ السياسي الفرنسي والمدنية الفرنسية (٤) ؛ فاهتمت بهذه المؤسسات وسعت لدى الباب العالي لنوال الفرمانات لها ثم شملتها برعايتها وحمتها بالمساعدات المالية ولو كانت ضئيلة (٥) ؛ بواسطة قناصلها لان هذه المؤسسات " كانت تعمل على تثبيت نفوذ فرنسا في الشرق ونشره (٦) " . وقد اصبح بمرور الزمن من قواعد السياسة الفرنسية في الشرق مساعدة الارساليات الكاثوليكية وحمايتها وخاصة ما كان يعمل منها في حقلي التعليم والاحسان (٧) الى جانب حماية الاماكن المقدسة والاديار وبعض صيحي لبنان (٨) . وقد دافع الكتاب الفرنسيون عن

---

(١) مياتا ١٧ — ١٨ و فونتوبيرون ٥ — ٦
(٢) حوراني ؛ ا . هـ . ؛ " سوريا ولبنان " لندن ١٩٤٦ . ص : ١٥٢
(٣) غير ١٢٨
(٤) حوراني ١٥٢
(٥) طالب ١٢٣
(٦) ج . غ . ؛ " عمل فرنسا الاجتماعي في الشرق " الف بمساعدة المندوبية الفرنسية ؛ بيروت ١٩٤٣ ص : ٨
(٧) سياسي قديم ٣٠٨
(٨) غير ١١٤

هذه الارساليات وطالبوا الحكومة بزيادة المساعدة المالية التي كانت تمنح للمرسلين [١] ؛ كما اتفق العلمانيون ورجال الدين على التعاون " لنشر النفوذ الفرنسي " [٢] في سوريا كما جرى بين وزير المعارف العلماني جول فيري واحد رؤساء الجزويت ؛ وناسبا عند بحثه عن المؤسسات الفرنسية في الشرق كتب " ان محاربة الكنيسة ليست بضاعة للتصدير " ؛ وسعى جهده لتقوية هذه المؤسسات [٣] . ولقد الغت فرنسا الجزويت في بلادها منذ سنة ١٩٠١ [٤] ولكنها بقيت تشجعهم في الخارج .

البابا يؤيد النفوذ الفرنسي :

ان المؤسسات الكاثوليكية في شتى انحاء العالم تتبع سلطة البابا وتنفذ تعليماته وتعتبره رئيسها ؛ وينوب عنه مندوبون في البلاد التي تحوي الكاثوليك ليتصل به هؤلاء الرعايا عن طريق مندوبيه . ولكن هؤلاء المندوبين لم يكن لهم سلطة مدنية او عسكرية تدعمهم لدى الباب العالي ؛ فاضطر البابا ان يؤمن لمندوبيه النفوذ بالارتكاز على دولة كاثوليكية مسيحية تتمتع هي بنفوذ قوي لدى الدولة العلية ؛ ومن كان احق من فرنسا بالقيام بهذه المهمة وهي التي بقيت محافظة على صفتها الكاثوليكية حتى سنة ١٩٠٤ حين فصلت الكنيسة عن الدولة . ولذلك ارسل رئيس الدعاية في الفاتيكان بأوامر الكرسي المقدس الى كافة الارساليات الكاثوليكية في الشرق بان عليها في اتصالاتها بالسلطات المحلية ان تفعل ذلك عن طريق ممثلي فرنسا السياسيين . وكان ذلك سنة ١٨٧٨ اي في نفس السنة التي عقد فيها مؤتمر برلين وتمكنت فرنسا فيه من تسجيل امتيازاتها في حماية كاثوليك الشرق . ثم اصدر البابا تعليمات مماثلة في سنتي ١٨٨٨ و ١٨٩٨ [٥] . ولقد دعم البابا حتى قبل هذه البلاغات نفوذ فرنسا باستمرار [٦] وهكذا فان رجال الارساليات لم ينقصهم التوجيه ؛ الذي كان يأتيهم عن طريق البابا ؛ ولا الحماية التي كانت تأتيهم عن طريق فرنسا ؛ وانما نقصهم شيء من الكفاءة في الغالب ؛ ولبعضهم شيء من حسن الخلق [٧] ؛ مما حمل القناصل احيانا على نصحهم بوجوب التزام الحذر كي لا يثيروا السلطات المحلية ويهددوا بذلك اتعاب سنين طويلة [٨] .

---

(١) فرتي ٨٧ — ٨٩
(٢) رودرر ٣٨
(٣) المصدر السابق نفس الصفحة
(٤) الموسوعة البريطانية مادة " جزويت "
(٥) حوراني ١٤٩
(٦) رودرر ٣٠
(٧) فيو ١٣٣
(٨) قالب ١٢٣

اليسوعيون اهم الارساليات

كنت اود ان اذكر بكل جمعية من الجمعيات الكاثوليكية في سوريا والتي تعمها فرنسا فاذكر مؤسساتها ولمحة عن تاريخها مع البحث عن اثرها . ولكني وجدت ان ذلك لا يلائم هذه الرسالة للاسباب الاتية :

١° — ان عدد الجمعيات الكاثوليكية في سوريا قد بلغ الست والعشرين جمعية (١) .

٢° — ان عمل هذه الجمعيات قد شمل التعليم والعناية بالمرضى والايتام ، والتبشير .

٣° — ان القصد من البحث عن هذه الارساليات هو بيان اثرها في دعم النفوذ الفرنسي وهذا عمل سعت اليه كافة هذه الجمعيات فكل حكم يصدق على احداها يصدق على اخواتها في الغالب ، وليس الغرض التأريخ لهذه الارساليات .

٤° — فقدان المصادر والاحصائيات لنشاط بعضها مما يجعل الكلام عنها ضربا من التخمين .

٥° — فضلت ان ابحث عن اليسوعيين في سوريا بشيء من التفصيل وان اجعل البحث عن الباقين من هذه الارساليات على قدر ما تسمح به المخطوطات التي تمكنت من الوصول اليها . ومن المعلوم ان اليسوعيين كانوا اقوى هذه الجماعات وانشطها ، ولا يزالون كذلك حتى اليوم .

اليسوعيون ومدرسة عينطورا :

تأسست جمعية اليسوعيين سنة ١٥٣٩ ونذرت على نفسها الفقر والعفة والطاعة ، كما نذر اعضاؤها الرئيسيون على انفسهم خدمة البابا (٢) ، وهذه الطاعة جعلتهم مؤسسة عسكرية في يد البابا ورؤسائهم . وعلى من يود الترقي في درجاتها ان يعمل في التعليم .

قدم اليسوعيون الى سوريا في اوائل القرن السابع عشر ولكنهم لم يستطيعوا ان يستقروا تماما حتى اواسط هذا القرن ، اذ تفرق اناس منهم في حلب ودمشق وطرابلس وصيدا . وفي سنة ١٦٥٣ غرق مركب على سواحل لبنان كان من جملة ركابه الاب لامبير اليسوعي الذي لجأ الى العوارنة فاكرموه وتوالى خلفاؤه بينهم . وفي سنة ١٧٣٤ بنى " بعض افاضل العوارنة مدرسة عينطورة وسلموها لليسوعيين على شروط " (٣) ولكن البابا حل هذه الارسالية سنة ١٧٧٣ فاستولى البطريرك يوسف اسطفان بطريرك العوارنة على مدرسة عينطورا وفي سنة ١٧٨٣ حول البابا املاك اليسوعيين الى العازاريين فاضطروا لاقامة الدعوى على البطريرك العاروني وان بأمره ليس السادس عشر بتسليم هذه المدرسة للعازاريين حتى تمكنوا من استلامها سنة ١٧٩٢ .

---

(١) رفيق بك ، محمد ، و بهجت بك ، محمد ، " ولاية بيروت ، القسم الجنوبي " معرب ، بيروت ١٣٣٥ هـ . ص : ٢٩ (٢) الموسوعة البريطانية ، الطبعة الحادية عشرة ، مادة " الجزويت " .

(٣) البستاني ، المعلم بطرس ، و ن . ن . " تاريخ سوريا " ٨ اجزاء في ٤ مجلدات بيروت ١٨٩٣ — ١٩٠٥

اليسوعيون يصلون :

عاد اليسوعيون الى بيروت سنة ١٨٣١ بعدان اعيدت ارساليتهم فافتتحوا مدرسة في غزير كان لديهم فيها حوالي اربعين من الطلاب الداخليين وخمسين من الخارجيين واغلب هؤلاء التلاميذ كانوا لدراسة اللاهوت الذى اسست هرسته سنة ١٨٤٣ (١) . وفي سنة ١٨٦٤ كان اليسوعيون في غزير يطبقون البرامج الفرنسية ذاتها مع قليل من الدراسة العربية . ولاحظ الاب غوتروني الذى استلم رئاسة الارسالية سنة ١٨٦٤ ان مركز مدرسة اللاهوت يجب ان يكون بيروت لا غزير لمقاومة المرسلين الاميركان (٢) ، وقد تمكن ان يجمع من اميركا نفسها الاموال اللازمة لبناء مدرسة في بيروت ونقل اليها مدرسة غزير سنة ١٨٧٥ فسميت جامعة القديس يوسف .

المطبعة الكاثوليكية ومطبوعاتها :

استورد اليسوعيون من باريس سنة ١٨٥٢ مطبعة صغيرة ركبوها في مقرهم القديم في بيروت بحي الصيفي ثم نقلوها سنة ١٨٦٠ لبناية خاصة بها . وفي سنة ١٨٧٥ نقلت الى بنايات جامعة القديس يوسف واصبحت تعرف بالمطبعة الكاثوليكية (٣) . وقد ادت هذه المطبعة خدمات جلى في نشر مبادئ اليسوعيين وفي الوقت ذاته في خدمة الثقافة الفرنسية (٤) مما حمل سلطة الانتداب في سوريا ولبنان ان تعرض بعض مطبوعات اليسوعيين التي اخرجتها هذه المطبعة في معرض المستعمرات في القسم المخصص للبلاد الواقعة تحت الانتداب .

وقد اخرج اليسوعيون سنة ١٨٧٠ جريدة " البشير " كانت روما توجه سياستها (٥) واهم ما قامت به البشير للكثلكة والرد بدون ملل " على اعداء البابوية " (٦) وبما ان فرنسا كانت تحمي هؤلاء المرسلين فانهم اعترفوا بالجميل ووفاء للدين كانوا يهتمون باظهار " احسان فرنسا التقليدى نحو سوريا ولبنان (٧)

وفي سنة ١٨٩٧ فكر اليسوعيون باصدار مجلة عربية تدعم عملهم وقد اصدروا " المشرق " سنة ١٨٩٨ وتولى رئاسة تحريرها الاب لويس شيخو (٨) . وقد خدمت هذه المجلة الثقافة العربية مع اهتمامها بالمسائل التبشيرية . كما انهم بدؤوا يصدرون منذ سنة ١٩٠٦ مجلة بالافرنسية سموها " مجموعة الكلية الشرقية " للاتصال عن طريقها بالعلماء الاجانب الذين يهم اليسوعيين ان يشرحوا لهم الدين الاسلامي والثقافة العربية والشرقية بناء على ابحاث اليسوعيين واجتهاداتهم .

---

(١) اليسوعيون في سوريا ، الكراس الاول ٧ — ٩ (٢) اليسوعيون في سوريا الكراس الاول ٩
(٣) اليسوعيون في سوريا الكراس السادس ٧ — ١٠ (٤) المصدر السابق ٧٠
(٥) المصدر السابق ٣٠ (٦) المصدر السابق ٢٨
(٧) المصدر السابق ٣٢ (٨) المصدر السابق ٥٥

كلية الطب :

اسس اليسوعيون كلية للطب سنة ١٨٨١ دشنت سنة ١٨٨٣ [١] وذلك لمقابلة كلية الطب في الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الاميركية اليوم) . تخرج اول جماعة من طلاب كلية الطب اليسوعية سنة ١٨٨٦ ولكن الحكومة العثمانية رفضت الاعتراف بشهاداتهم ما اضطر اليسوعيين والحكومة الفرنسية من ورائهم الى مفاوضة العثمانيين حتى استقر الرأي على ان تؤلف لجنة فاحصة مشتركة يأتي قسم منها من الاستانة مندوبا عن الدولة العلية ويأتي القسم الاخر من فرنسا ممثلا الحكومة الفرنسية . ينال الطالب شهادتين في الطب احداهما من الحكومة العثمانية والثانية من الحكومة الفرنسية . وقد اجتمعت اول لجنة مختلطة سنة ١٨٩٩ وبقيت تجتمع كذلك حتى سنة ١٩١٤ [٢] . اما الذين تخرجوا قبل هذا التاريخ فسمح لهم بتقديم فحص اجمالي (كولوكيوم) يسمح للناجحين فيه بمزاولة المهنة في الاراضي العثمانية . لقد تخرق خريجو معهد الطب الفرنسي في انحاء مختلفة من العالم العربي والمهاجر ، وسكن قسم منهم فرنسا نفسها ليعمل فيها [٣] .

بلغ عدد الطلاب في كلية الطب هذه سنة ١٩١٠ المئتين والخمسين وكان هذا اقصى ما تستطيع تحمله البنايات والمختبرات الخاصة لهذه المدرسة . ولكن اليسوعيين الذين عرفوا بنشاطهم ما لبثوا ان اقاموا بنايات جديدة جرى افتتاحها سنة ١٩١٢ وضمت حينذاك ثلاثمئة طالب بينما كان عدد الطلاب سنة ١٩١٤ ثلاثمئة وخمسين [٤] . وقد كان هذا اكبر عدد من الطلاب في مدرسة الطب الفرنسية حتى سنة ١٩٣١ [٥] وربما كان اكبر عدد حتى يومنا هذا .

كليتا الحقوق والهندسة :

في تشرين الثاني من عام ١٩١٣ افتتحت في مباني كلية الطب القديمة مدرستا الحقوق والهندسة وقد مثل الحكومة الفرنسية نائب الامبرال بوي دي لا بيير الذي ترأس الاحتفال، ومثل عميد جامعة ليون السيوجيان وزير المعارف الفرنسية كما مثل السيو كوجي قنصل فرنسا العام وزير الخارجية الفرنسية ، لكن الدروس لم تعبأ الا سنة ١٩١٩ [٦] رغم ان واحدا وثلاثين طالبا سجلوا منذ سنة ١٩١٣ بينهم اربعة عشرة لبنانيا وخمسة عشرة سوريا وعثمانيان [٧] . وقد القى السيو بول هوفلين في حفلة الافتتاح خطابا قال فيه ان مدرسة الحقوق هذه " هي ابنة فرنسا لان لها دعوة انتدبتها

---

(١) اليسوعيون في سوريا الكراس الثاني ٧ (٢) المصدر نفسه الكراس الثاني ١٢
(٣) " " " " " ١٤ (٤) " " " " " ١٤
(٥) " " " ملحق رقم ١ (٦) اليسوعيون الكراس الرابع ٨
(٧) المصدر السابق ٩

الدولة الفرنسوية الى اعتبارها " ثم يمنح فرنسا " مهذبة الشعوب " وحديقة الدولة العلية [١] . وهذا كلام صريح لا يحتاج الى تأويل . ففرنسا تعلم الخدمات التي يقدمها لها المرسلون وهي تتبنى مدارسهم وتدعمها في سبيل الحرية والعدالة والاخاء طبعا ! طالما ان فرنسا مهذبة الشعوب ومعلمة الحرية للعالم ؛ ولكن احدنا لا يدري كيف يوفق بين هذه الادعاءات واستعمارها الشعوب الحرة في شمال افريقيا حينذاك ثم وضع يدها على سوريا ولبنان بدلا من تركهما وشأنهما بعد الحرب العالمية الاولى .

اعمال اخرى لليسوعيين :

رأى اليسوعيون ان التعليم وحده لا يكفي للاتصال بالشعب واداء المهمة التي انتدبوا انفسهم لها فاسسوا " اتحاد العمال " سنة ١٨٦٣ لحفظ ايمان هؤلاء الشباب الذين يهبطون من الجبل الى المدينة فتغمرهم مباهجها ويتركون دينهم وراء ظهورهم وقد اهتم اليسوعيون بتعهيد العمال القيام بواجباتهم الدينية ومساعدة بعضهم بعضا في المرض والبطالة . كما اسس آباء هذه الارسالية رابطة للعمال من الاولاد واخرى للخادمات واهتموا بالسجون والمسجونين [٢].

وفي سنة ١٩٠٢ اسسوا " الكلية الشرقية " التي اعطت سنة ١٩٠٦ درجة الدكتوراه في اللاهوت لراهبين [٣] . وفي سنة ١٩٠٧ اسسوا مرصد كسارا الذي استمر يعمل حتى سنة ١٩١٤ حين اضطر اليسوعيون لتركه بعد ان خبؤوا معظم آلاته . وكان من جملة هذه الالات محطة لاسلكية شغلت بال الحكومة العثمانية لشكها باتصال اليسوعيين بواسطة هذه المحطة بالبحرية الفرنسية لكن الاتراك الجاهلين لم يستطيعوا اثبات ذلك [٤] .

ولم يكتف اليسوعيون بهذه المؤسسات بل انشؤوا مدارس في انحاء مختلفة من لبنان وسوريا فافتتحوا لهم مدرسة في دمشق سنة ١٨٧٢ واخرى في حلب سنة ١٨٧٣ [٥] وقليل من المدن الكبرى او المراكز المهمة لم يكن فيها لليسوعيين مدرسة او اكثر كبكفيا وبعلبك وجلة وغيرها [٦] .

اثر اليسوعيين :

لقد تمكن اليسوعيون من التغلغل في المناطق التي يقطنها الموارنة حيث اجتهدوا " بتعميم

---

(١) المشرق السنة السادسة عشرة ١٩٢٧ — ٣٤ (٢) اليسوعيون في سوريا الكراس السابع ١ — ١٠
(٣) اليسوعيون في سوريا الكراس التاسع ٢٣ (٤) " " " " الثامن ١٠
(٥) انطونيوس ؛ جورج ؛ " اليقظة العربية " لندن ١٩٣٨ . ص : ٤٤
(٦) غير ١٣١

اللغة الفرنسية ونشرها " بحيث كنت ترى " الشبان من ابناء الطائفة المذكورة ... سواء كانوا في المدن او في القرى يتكلمون ويكتبون اللغة الفرنساوية بسهولة اكثر من لغتهم الاصلية " (١) . وقد عرف الفرنسيون ان المتخرجين من المدارس الفرنسية " سيحفظون لفرنسا عطفا تيها " وانهم " قد عملوا وسيعملون ليكتسبوا لهم صداقة الشعب الذي يتأثر بثقافتهم " (٢) يخصون من هؤلاء المتخرجين طلاب كلية الطب اليسوعية لما للاطباء من اثر في مجتمعهم (٣) .

الارساليات الاخرى : (الرجال)

لم يكن اليسوعيون الوحيدين في ميدان العمل لنشر الثقافة الفرنسية والنفوذ الفرنسي في سوريا ولبنان بل كانت هناك ارساليات مختلفة للرهبان او الراهبات او العلمانيين يقومون بنفس المهمة وان لم يكن بنفس القوة . ومن هذه الارساليات العازاريون الذين احتلوا الاديرة التي كان الجزويت قد تركوها وذلك سنة ١٧٨٣ بموجب براءة من البابا بعد حل سلك اليسوعيين . وكانت اشهر مدارسهم ولا تزال في عينطورا وهم يعلمون فيها منذ سنة ١٨٣٤ بالافرنسية ، ومدرسة برمانا هي مركز تخريج المعلمين لهم . وقد اورد سامني ان عدد مدارسهم في لبنان فقط يبلغ مئة وثلاثين مدرسة (٤) عدا عن مدارسهم في سوريا نفسها كمدرستهم الثانوية في دمشق ومدرستيهم الابتدائيتين في المدينة نفسها .

يلي مدارس العازاريين في الاهمية معاهد " اخوة المدارس المسيحية " الذين جاؤوا الى البلاد السورية سنة ١٨٧٨ (٥) وانتشروا في انحاء متفرقة من لبنان وسوريا فكانت لهم مدارس في بيروت وطرابلس والاسكندرونه واللاذقية وبيت مري وغيرها ، وقد اهتم هؤلاء المرسلون بشكل خاص بنشر الفرنسية بين الناس (٦) .

ومن الارساليات المهمة بشكل خاص ارسالية الاباء الفرنسيسكان وقد اسسوا كليتهم في حلب سنة ١٨٥١ (٧) ثم اسسوا ادبارا وملاجيء في صور وصيدا وبيروت وحريصة لبنان وطرابلس الشام واللاذقية ودمشق وحلب والاسكندرونه وعينطاب ونصيبين (٨) .

وارسالية الاباء الكبوشيين الذين فتحوا في لبنان وحده ست وتسعين مدرسة اهمها مدارس طانيه وغزير وصيدا كما فتحوا مدارس في بيروت وانطاكية (٩) ودمشق وطرابلس وصيدا .

---

(١) " ولاية بيروت " القسم الجنوبي ٢١
(٢) فونتو بيرون ٦ — ٧
(٣) راجع الجدول الملحق بشأن عدد طلاب كليتي الطب والصيدلة ومتخرجيها . يرى من الجدول اهتمام الارسالية بتوسيع هذه الكلية .
(٤) سامني ١٩٢ — ٤
(٥) ولاية بيروت ٢٦
(٦) برتراند ٣٠٠
(٧) فوتي ٩٥
(٨) ولاية بيروت ٢٧
(٩) سامني ١٩٣

اما الآباء الدومنيكيون فحصروا نشاطهم في الشمال الشرقي من سوريا حوالي الموصل وديار بكر ولذلك فلن نأتي على ذكر مؤسساتهم .

اما الارسالية العلمانية فلم تبدأ عملها الا سنة ١٩٠٩ في بيروت[١] لذلك لم يكن لها اثر كبير كالارساليات الدينية السابقة . وقد كان هدف هذه الارسالية العلمانية " نشر اللغة والثقافة الفرنسية بدون الالتفات الى الآراء السياسية والفلسفية والدينية "[٢] . وكانت جمعية " الاليانس الاسرائيلية " تعلم طلابها وطالباتها بالفرنسية ايضا .[٣] وقد بلغ عدد طلاب المدارس الابتدائية الفرنسية في سوريا ولبنان سنة ١٩١٣ خمسة وعشرين الفا .[٤]

ارساليات الراهبات :

كانت بعض ارساليات الراهبات يعملن في التعليم فقط مثل " راهبات العائلة المقدسة " اللواتي اسسن مدارس في بيروت وحلب واللاذقية[٥] ، وراهبات الفرنسيسكان وقد افتتحن مدرسة في دمشق فقط[٦] ، وراهبات القديس يوسف ولهن مكاتب وادبار في ٨ بيروت وصيدا وديرالقمر والاسكندرونه وحلب[٧] حيث لهن ايضا مستشفى . كما انهن يدرن مدارس ومشاغل للروم الكاثوليك وللسريان الكاثوليك ؛ وراهبات الناصرة ولهن مدارس ومشاغل في بيروت وطرابلس وسمرا جبيل[٨] ، والراهبات الكرمليات اللواتي يدرن مكاتب في بشري والشبات وطرابلس وحلب .

وبعضهن يعملن او يسعفن المرضى ويعملن في المستشفيات والمستوصفات مثل راهبات " بنات الاحسان " اللواتي يدرن مستشفى ومستوصفا وملجأين للايتام ومدارس عديدة في بيروت هذا عن اللاتين وخمسين مدرسة في لبنان اهمها في الزوق وبرمانا وزغرتا وحصرون وبحنس[٩] . ولهن في دمشق كما لهن في بيروت مدارس ومستوصفات ومستشفى وكذلك الحال في طرابلس[١٠] . ولراهبات " اخوات الاحسان " دور للايتام ومدارس ودور للفتاة[١١] . وهناك راهبات " سان فانسان دي بول " يدرن في بيروت مستشفى كبيرا ساعده الحكومة الفرنسية ويطبق فيه ممرضاتهم اساتذة وطلاب كلية الطب الفرنسية ؛ ويدرن في دمشق مستوصفا كبيرا[١٢] .

---

(١) سامي ٢٠٤
(٢) فونتو بيروت ٧
(٣) برتراند ٢٠٤ — ٧
(٤) ريستلهوبر ٢٨٠
(٥) سامي ٢٠٠
(٦) ولاية بيروت ٢٧
(٧) سامي ١٩٥ — ٦
(٨) سامي ١٩٩
(٩) المصدر السابق ١٩٧
(١٠) المصدر السابق ١٩٨
(١١) ولاية بيروت ٢٧
(١٢) فرني ٨٢

ولا شك ان اولئك الراهبات بعطفهن الذى اغدقه على من يحتاجه من المرضى والايتام الصغار قد لعبن دورا هاما في كسب قلوب السوريين نحو الحضارة الفرنسية [١] ، اكثر مما فعلته مدارس الارساليات على ما اظن .

بعض مدارس الطوائف والجمعيات :

لقد تعاونت بعض مدارس الطوائف في نشر الثقافة الفرنسية بين ابناء الشعب كمدارس الموارنة والملكيين والمدارس الاسرائيلية وهذه كلها ادت للفرنسيين الذين كانوا يدعمونها خدمات جلى . وخرجت اجيالا من ابنائها قد تشربوا معلوماتهم على الطريقة الفرنسية واغلب هذه المطبوعات كان يدرس بالفرنسية نفسها .

وقد قامت جمعية " التحالف الفرنسي " بقسطها في نشر النفوذ الفرنسي بالمحاضرات وغرف المطالعة وتقديم الادوات المدرسية ... وكان عدد اعضائها العوآزرين سنة ١٩١٢ في سوريا ثمانين وخمسة وعشرين عضوا . [٢]

منافسة ارساليات الدول المختلفة للارساليات الفرنسية :

لقد قامت بعثات التبشير لدول شتى بارسال ارجالها متوالية متزايدة في القرن التاسع عشر الى سوريا ولبنان . فكان منها الانكليزية والاميركية والروسية والايطالية والالمانية وغيرها وكل منها تسعى لكسب النفوذ لدولتها ، وتتبارى في نشر لغة قومها بين السوريين . على ان انشاء الكلية السورية الانجيلية في بيروت كان بنظر الارساليات الفرنسية اخطر من الباقي لانه سيدعم النفوذ الانكلوسكسوني لمصلحة انكلترا [٣] على حساب النفوذ الفرنسي كما انها ستبشر بالبروتستانتية وكانت الارساليات الكاثوليكية تحاربها اما روسيا فوجدت في الروم الارثوذكس ارضا خصبة لدعايتها ، خاصة وقد جعلتهم محميها كما جعلت فرنسا الكاثوليك . وقد وجد الفرنسيون ان الارساليات الدينية التي يمكنها ان تعيش ابسط التكاليف هي التي يمكنها ان تتفوق في هذه المنافسة بين ارساليات الامم [٤] ، وارساليات فرنسا كانت من الرهبان الذين يقنعون بالكفاف ولولا هذه الارساليات لما تمكنت فرنسا ان تنشئ هذه المدارس والملاجئ والمستشفيات التي جعلت اسم فرنسا وعرفه للناس [٥] وجعلت المسيو برتراند يرى ان الجيل السوري الجديد، حينما

---

(١) روشرو ٤٢ (٢) سامني ٢٠٤

(٣) صفير ، عبد الله باشا ؛ " الانتداب الفرنسي والتقاليد الفرنسية في سوريا ولبنان " باريس ١٩٢٢ ص : ١٦ (٤) مايا ١٥

(٥) طرزي ١٠٩

زار هذه البلاد، يتكلم الفرنسية بكل دقة [١] ؛ وسامي يشهد ان الثقافة الفرنسية تغلبت في سوريا على الثقافتين الايطالية والانكلوامريكية رغم منافستهما النشيطة [٢] ؛ منذ سنة ١٨٦٠ .

موقف العثمانيين من الارساليات :

بعد ان تساهل العثمانيون مع ارباب الارساليات منذ اوائل القرن التاسع عشر ؛ ملأ هؤلاء انحاء السلطنة بمؤسساتهم ونشروا ثقافتهم ونفوذهم وتبشيرهم في الاوساط . لكن حكومة السلطان عبد الحميد الذي كان يدعو الى جامعة اسلامية ؛ رأت في توسيع هذه الارساليات خطرا يهدد تعاليم الاسلام ؛ فامرت ؛ تحت ضغط العلماء ؛ بان لا تفتتح اي مدرسة في المستقبل بدون موافقة الباب العالي المسبقة وصدور ارادة شاهانية بالسطح بافتتاح هذه المدرسة . وعينت الحكومة مفتشين للمعارف في كل الولايات لمراقبة البرامج المدرسية والكتب سواء كانت للتدريس او الجوائز او لافراد الارساليات انفسهم ؛ ولمنع دخول هذه الكتب عند اللزوم . كما قررت الاهتمام بادارة التعليم ومنع الشبيبة الاسلامية من دخول اي مدرسة اجنبية لا تتمشى وفق تعليمات وزارة المعارف العامة [٣] . ولكن الدول الاوربية لم ترقها هذه الترتيبات فاحتجت وهددت واخيرا عقدت فرنسا مع الدولة العثمانية اتفاقية ميتيلين في تشرين الثاني سنة ١٩٠١ [٤] حيث اعترفت الحكومة العثمانية بالمؤسسات الموجودة واعادت اليها الاعفاءات الجمركية واعطت رخصا للمؤسسات غير المرخصة ؛ اي انها تولت على حكم فرنسا .

نقص المدارس العثمانية :

اذا نجحت المؤسسات الاجنبية في الميادين المختلفة التي دخلتها فما ذلك الا لان الحكومة العثمانية لم تلتفت الى هذه النواحي من حياة الامة التي يستحق الذكر . فقد بقيت الكتاتيب مع المدارس الدينية في المساجد والاديرة ؛ المدارس الوحيدة تقريبا حتى اواسط القرن التاسع عشر . وفي ذلك الوقت اخذت الحكومة على عاتقها ادارة بعض المدارس حسب النظم الفرنسية ؛ ولكن حظ سوريا من هذه المدارس كان قليلا ؛ والتعليم فيها لم يكن مشوقا جذابا ؛ فاضطر الناس الراغبون في العلم ان يتجهوا نحو مدارس الارساليات التي ملأت المدن والقرى في سوريا ولبنان ؛ واصبح من الصعب ان

---

(١) برتراند ٢٦٤ — ٧٨ (٢) سامي ١٨٤ — ٥

(٣) سياسي نعيم ٣٠٨ — ٩

(٤) وثائق رسمية متعلقة بالاعتراف بالارساليات والمؤسسات الخيرية الفرنسة في تركيا سنة ١٩٠١ (لم يشر الى المجلة التي انتزعت منها هذه الوثائق ولا الى تاريخ العدد) .

تجد قرية في لبنان لا توجد فيها مدرسة او اكثر للاجانب ، اما في سوريا فكان هم الارساليات منصرفا في الدرجة الاولى الى المدن .

ولم تكن المستشفيات والمستوصفات باكثر حظا من عناية العثمانيين مما كانت عليه المدارس ، فكانت مؤسسات الصحة الاجنبية بلسما لجراح كثيرين كانت الامراض والجهل كافية لجرفهم الى الهاوية . ولكن نشر المدارس العثمانية وانشاء الاجانب لمدارسهم المختلفة اهاب ببعض الاهلين من السوريين واللبنانيين الى انشاء مدارس وطنية نالت ثقة الاهلين ونجحت نجاحا ملحوظا في حقل غرس الروح الوطنية في ابنائها .

تقـــديـــر

الصداقة التركية الفرنسية اساس العلاقات :

ان الذي مهد السبيل لفرنسا في ادعائها هو صداقتها للباب العالي وحمايتها للكاثوليك (١) ، وقد رأينا ان حماية الكاثوليك كانت نتيجة للصداقة نفسها (٢) ، وقد تمكنت فرنسا من تقديم خدمات فعالة لهؤلاء المحميين بفضل هذه الصداقة (٣) ، فقامت علاقات ودية بينها وبين الطوائف الكاثوليكية في سوريا ولبنان بفضل هذه الخدمات ، واهم هذه الطوائف الموارنة .

لم تذكر الامتيازات شيئا يتيح لفرنسا التدخل الى جانب الموارنة او غيرهم من العثمانيين . ولكن فرنسا الصديقة تمكنت من اجتذاب هذه الثقة ومن بث النفوذ الفرنسي بين افرادها حتى اصبحوا نقطة ارتكاز السياسة الفرنسية في الشرق (٤) ، يستغيثون بفرنسا فيغاثون وتسعى فرنسا لحفظ نفوذها بينهم (٥) ولو لزم لان ترسل حملة عسكرية كما حدث سنة ١٨٦٠ .

ولكن هذه الثقة مع اخوانها الكاثوليك ، كانوا الوحيدين في سوريا ولبنان الذين كانوا يتعلقون من كل قلبهم بفرنسا (٦) ، بينما نرى بقية الفئات وهي الاكثرية الساحقة لا تهتم بالنفوذ الفرنسي ، بل قد تعاكسه كما كان يفعل الدروز مثلا في القرن التاسع عشر . وبالرغم من اخلاص الموارنة للفرنسيين فقد

---

(١) فونتو سوين ١ (٢) حوراني ١٥٠
(٣) سامني ٤٠ (٤) لونورمان XIV
(٥) المحررات السياسية الجزء الثالث ٢٧٢
(٦) حوراني ١٥١

شهد فيهم الدكتور لورتي الافرنسي "ان المواطنة اقل قيمة من جيرانهم المسلمين ، وكذلك هم اشد فسادا وجبنا ورخاوة ، واقرب الى الكذب والتسول بجميع انواعه " (١) وهذه الشهادة قاسية بحقهم ولا شك ولكن من يتجه وهو في بلاده صوب الاجنبي ليحميه من اهل بلاده ، جيرانه واقرانه ، لا يمكنه ان يكسب احترام الاجنبي الذي تعود حب بلاده ، وان اظهر له الاجنبي بشاشة وعطف فذلك ليستغله ويسيره .

لقد تصادق الفرنسيون مع العثمانيين لغايات سياسية قبل كل شيء فلما عرفوا فن هذه البقعة سعوا لاستغلال مواردها عن طريق التجارة اولا ثم عن طريق القروض والشركات والارساليات ، وهذا ما حملهم على اعتبارها مستعمرة غنية مثل مستعمراتهم في اميركا والهند (٢) .

العلاقات الثقافية :

ولقد نمت الى جانب بيوت التجارة في سوريا ولبنان مؤسسات الارساليات الفرنسية التي سعت لنشر اللغة والثقافة الفرنسية ، وايجاد روابط معنوية اعتبرها بعض الفرنسيين اهم من روابطهم المادية التي لا يستهان بها (٣) بالرغم من نجاح الارساليات في مهمتها الى حد ما فان تدريسها كان سطحيا (٤) ، ولو كان كثير من الجيل الناشئ ، وعند المواطنة خاصة ، اصبح يتكلم الفرنسية (٥) .

انما يجب الا ننسى ان اتجاه هؤلاء الشباب نحو الفرنسية ابعدهم عن لغة بلادهم بالتدريج ، كما ان ابناء المسلمين فضلوا المدارس الاهلية او الحكومية حيث تقال العربية وبالتالي الشعور القومي عناية اكبر (٦) . وهكذا انتقلت زعامة الحركة القومية بالتدريج الى ايدي المسلمين بعد ان كان المسيحيون قد حملوها مدة من الزمن (٧) . والمؤسسات الفرنسية ، كغيرها ، لم تكتف بتعليم لغة بلادها وانما سعت لصبغ طلابها بالصبغة الفرنسية ووجهت انظارهم نحو فرنسا وكذلك فعلت مدارس بقية الارساليات مما زاد البلبلة والانشقاق (٨) اللذين كانا موجودين بفعل تعدد الطوائف والعناصر والاجناس . وقد يخيل لمن يقرأ بعض كتب الفرنسيين ان اللغة الفرنسية اصبحت تغني من يعرفها في سوريا عن غيرها من اللغات ، والواقع ان العربية بالدرجة الاولى ومن بعدها التركية بقيت ضرورية لمن كان يود الاقامة في سوريا (٩) .

---

(١) لورتي ٨٠
(٢) ماسون (القرن الثامن عشر) ٢٧٩
(٣) غونتو بيرون ٨
(٤) فرني ٩٠
(٥) حوراني ١٥٢
(٦) انطونيوس ٩٤
(٧) المصدر السابق ٩٣
(٨) المصدر السابق ٩٢
(٩) عبر ١٣٢

فالتعليم لم يشمل الا نسبة ضئيلة من السكان ؛ اضف الى ذلك ان كثيرين ممن تعلموا الفرنسية لم يحفظوا الا جملا وألفاظا لا يستطيعون استعمالها بشكل مجد [١] واذا كانت بعض مبادىء الثورة الفرنسية قد تسربت للشرق وظن الناس ان فرنسا تعني الحرية والعدالة والاشعاع الفكري فان مجرى مختلفة نقلت هذا الظن ، اهمها الارساليات وبينها حملة نابوليون على مصر ثم بعثات مصر الى فرنسا [٢] ؛ وكذلك تأثر بعض الطلاب الذين فضلوا ان يرشفوا العلم من فرنسا نفسها على ان يرشفوه من ارسالياتها ، وكان منهم طلاب في فرنسا في اوائل القرن العشرين . ومن هؤلاء الطلاب انعقد المؤتمر العربي في باريس سنة ١٩١٣ [٣] اثر تصريحات وزير خارجية فرنسا بان انكلترا قد اطلقت يد فرنسا في سوريا ، وان لفرنسا مصالح تقليدية في هذا الجزء يهمها ان تحترم [٤] . ولما قابل رئيس المؤتمر وامين سره وزير الخارجية الفرنسية الذي كان يظن ان المؤتمر سيكون من الداعين لفرنسا ؛ قطع الرئيس " الطريق على الذين اندسوا بين رجال المؤتمر ورجوا انه ما عقد الا لخدمة السياسة الفرنسية وان غايته هي طلب المساعدة الفرنسية [٥] " وافهم الوزير بصراحة ان هدف المؤتمر تحسين حال الولايات العربية ضمن اطار الامبراطورية العثمانية على اساس اللامركزية . ويضيف امين سعيد " ولقد ادرك الوزير ما رمى اليه (رئيس المؤتمر وامين سره) فكتب كتابا سريا الى قناصل فرنسا في سوريا يقول فيه : " لقد تحقق لدينا من تصريح الوفد الذي وافانا باسم المؤتمر العربي ان هذه الحركة قد انقلبت عليكم فاظهروا انفسكم انكم تساعدونها لاكتساب ثقة الشعب واسعوا في القضاء لقتلها " [٦] لانه كان يعلم ان هذه الحركة ستقف حائلا بين الفرنسيين ومطامعهم .

---

(١) روى لي الدكتور ل . فولميه وهو احد اساتذة الادب الفرنسي في مدرسة الاداب العليا في بيروت لعام ١٩٥٠ — ١٩٥١ ، وكان قد تنقل في عدة مناصب تعليمية مهمة في سوريا ايام الانتداب كما استلم ابان الحرب العالمية الثانية رئاسة الاستخبارات الفرنسية في سوريا ولبنان ما يلي :
" كان مثيرا لاحدى المدارس في حماه حينما جاءه شاب ممن يدعي الثقافة والمعرفة الفرنسية . فلما اراد ان يحدث المسيو فولميه بادره بالسؤال : ما هو اسم الجنس ؟ ظانا انه يظهر بذلك اطلاعه مع انه لم يكن يحسن اكثر منها بكثير . هذا في ايام الانتداب نفسها فما قولك بما قبل الانتداب ؟ "
وقد عقب محدثي على ما رواه بقوله " لا تغتر كثيرا بما تنقله بعض المجلات او الكتب فالواقع ان الثقافة الفرنسية كانت محدودة جدا في سوريا ولبنان قبل حرب سنة ١٩١٤ " .
(٢) خوري ، رشيف ؛ " الفكر العربي الحديث : اثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي " . بيروت ١٩٤٣ . ص : ٧٨ — ٨١ (٣) انطونيوس ١١٤
(٤) سعيد ، امين ؛ " الثورة العربية الكبرى " في ثلاثة اجزاء . القاهرة ط ١٩٣٤ . الجزء الاول ١٣ .
(٥) سعيد الجزء الاول ٣١ (٦) المصدر السابق نفس الصفحة .

وقد تأسست في باريس جمعية عربية اسمها " الفتاة " وهي سرية هدفها النهوض بالعرب واغلب اعضائها من السوريين وقد نقلت مركزها الى بيروت سنة ١٩١٢ ؛ ثم دمشق سنة ١٩١٥ ؛ ولم تتصل بالمسؤولين الفرنسيين .

لكن بعض السوريين واللبنانيين اتصلوا بالفرنسيين مباشرة ؛ كما ظهر من الوثائق التي وجدها جمال باشا في قنصليتي فرنسا في بيروت ودمشق والتي اودت برؤوس من نهض عليهم من اصحابها [1] . وكانوا يودون تدخل فرنسا لاستقلال بلادهم عن العثمانيين ؛ والى جانبهم من قاموا من السوريين يدعو الى نهوض العرب ؛ كنجيب عازوري الذي كان يتقاضى اموالا من فرنسا [2] فلم يدعو فرنسا لاحتلال البلاد مذكرا اياها بخيرات سوريا وبروابطها مع فرنسا [3] ؛ وقد دعا الى مثل هذه الفكرة الكونت كريساني الذي ادعى انه سوري [4] . ولكن امثال هؤلاء قلة لا تكاد تظهر بالنسبة للكثرة من درس الفرنسية وهي على حب بلاده لا يريد سوى استقلالها عن كل اجنبي .

اثر فرنسا في سوريا ولبنان :

لما غادر الفرنسيون سوريا ولبنان بسبب الحرب العالمية الاولى تركوا وراءهم آثارا كثيرة منها مادية كهذه الابنية الضخمة لمؤسساتهم الثقافية والصحية والتجارية ؛ او كهذه الخطوط الحديدية التي تخترق سوريا من شمالها الى جنوبها وتربط ساحلها بداخلها ؛ ومنها معنوية كهذا الحب والحنين الى فرنسا الذي خلقوه في قلوب الكاثوليك من ابناء البلاد ؛ بمعرفة الثقافة الفرنسية التي صبغوا بها عقول الناشئة . وهذه الآثار لم تنشأ في الفضاء ولا شك ؛ ولكنها نشأت عن علاقات سطها الفرنسيون " تقليدية " .

واذا كان هناك من خلاف بيني وبين بعض الفرنسيين فهو ليس لانكاري وجود هذه العلاقات ؛ ولكن لاني لا ارى فيها ما يراه هؤلاء من انها تعطي الحق لفرنسا بعد ظلمها على سوريا ولبنان والتدخل في سياستهما .

فالعلاقات نشأت عن الامتيازات ؛ وهذه فرضت من جانب الاقوياء على الشعوب التي كانت خاضعة لسيطرتهم دون ان يكون لهذه الشعوب حق ابداء الرأي او المشاركة في التوجيه ؛ لذلك فالامتيازات

---

(١) سعيد الجزء الاول الصفحة ٦٧ و ٨١ .
(٢) انطونيوس ٩٨
(٣) عازوري ١٠٨ ف ١١٥ ؛ ١٢٨
(٤) كريساني ١٦ ؛ ١٩

وما عهدها من علاقات لا تلزم سوريا ولبنان لانها لم تكن برضائهما . واذا سلمنا جدلا بان هذه العلاقات كانت عن رضى وقبول فهذا لا يعني اى حق لفرنسا بالتدخل في شؤون هذه البلاد ؛ لان ما من امة تستطيع ان تنكمش على نفسها وتعيش في عزلة عن بقية الامم الا اذا كانت في اطوارها البدائية ؛ وسوريا ولبنان كانت منذ اقدم العصور ملتقى الحضارات .

كما ان غير فرنسا من الدول كانت لها علاقات مع سوريا ولبنان ربما ساوى بعضها بعضها علاقات الفرنسيين او فاقها ؛ فهل تكون سوريا ولبنان نهبا مقسما بين الدول اكراما لهذه العلاقات وهي كما قلنا يمكن ان توجد مع اية امة كانت في العالم . ان عصبة الامم قامت على اساس مبادىء ولسن التي تنص البند الثاني عشر منها على منح الحرية للشعوب المسلوخة عن الامبراطورية العثمانية في اختيار نظام حكمها وفي ادارة شؤونها ومصالحها ؛ وقد كانت اكثرية الشعب السوري لا تريد ان ترى حكما اجنبيا في بلادها مهما كانت صفته ؛ فقرض نظام سمي بالانتداب كان مخالفا لرغبة السوريين ، وقرض فرنسا نفسها كان ايضا مخالفا لرغبة اكثريتهم ؛ التي فضلت فيما اذا كان لا بد من الانتداب ان يعهد به الى اميركا كما انضم للجنة كراين .

ان ادعاء فرنسا وجود علاقات تقليدية اذا كان مفهومها تبرير بسط السيطرة وتحويل سوريا ولبنان الى مستعمرة فرنسية ؛ ادعاء غير مؤيد بحجج معقولة ولا يستند الى اسس صحيحة ؛ وكل ما يمكننا التسليم به هو ان فرنسا قد اهتمت بخلق هذه العلاقات ؛ وكان الاحرى بها ان تثقف وثقة الصديق — فيما اذا كانت صادقة بما تدعو به دائما من الصداقة — فتساعد هذه البلاد بعد الحرب العالمية الاولى على التمتع بحريتها الكاملة واستعادة مركزها ومجدها التليد ؛ بدل ان ترهقها نحو ثلث قرن من الزمن بجميع انواع العنف والتقييد .

ملحق

جامعة القديس يوسف في بيروت . كلية الطب والصيدلة

(عن "اليسوعيون في سوريا" الكراس الثاني الجزء الأول)

سنة الدراسة	طلاب الصيدلة	طلاب الطب	طلاب العلوم	المجموع	اجازات الطب	اجازات الصيدلة	ملاحظات
١٨٨٣ ـ ٨٤	١١	١٠	١	١١	٠	٠	
١٨٨٤ ـ ٨٥	١٤	٢٠	٥	٢٥	٠	٠	
١٨٨٥ ـ ٨٦	١١	٢٦	٦	٣٢	٠	٠	
١٨٨٦ ـ ٨٧	٢٥	٤٣	١٢	٥٥	١	١	اجازة افرنسية خاصة
١٨٨٧ ـ ٨٨	١٤	٤٣	٨	٥١	٨	٠	
١٨٨٨ ـ ٨٩	١١	٥٠	٨	٥٨	٣	٠	اعطيت لقب كلية للطب
١٨٨٩ ـ ٩٠	١٨	٥٦	٧	٦٣	٧	٣	اعطيت لقب كلية للصيدلة
١٨٩٠ ـ ٩١	١٨	٦١	٩	٧٠	٧	٠	
١٨٩١ ـ ٩٢	١٥	٧٦	٤	٨٠	٧	٠	
١٨٩٢ ـ ٩٣	٢٠	٦١	٨	٦٩	٣	١	
١٨٩٣ ـ ٩٤	٢٢	٦٧	٥	٧٢	٥	٢	
١٨٩٤ ـ ٩٥	٤٠	٧٣	١٢	٨٥	٨	٠	اجازة افرنسية
١٨٩٥ ـ ٩٦	٣٧	٩٥	١٨	١١٣	٦	٠	
١٨٩٦ ـ ٩٧	٣٦	٨٩	٢٩	١١٨	١٢	٣	
١٨٩٧ ـ ٩٨	٣٩	١٠٠	٣١	١٣١	١٢	٢	دكتوراه الدولة الفرنسية ودكتوراه الدولة العثمانية .
١٨٩٨ ـ ٩٩	٢٥	١٠٦	٢٨	١٣٤	٧	٣	
١٨٩٩ ـ ١٩٠٠	٣٧	١٠١	٢٤	١٢٥	١٧	٧	
١٩٠٠ ـ ١٩٠١	٥٤	١١٥	١٦	١٣١	١٦	٢	
١٩٠١ ـ ١٩٠٢	٥٣	١٣١	٢٢	١٥٣	٢٢	٥	
١٩٠٢ ـ ١٩٠٣	٥٦	١٦٤	٣٢	١٩٦	١٢	٥	
١٩٠٣ ـ ١٩٠٤	٤٧	١٤٠	٢٣	١٦٣	٣٠	٧	
١٩٠٤ ـ ١٩٠٥	٥٠	١٤٧	٢٣	١٧٠	٣٥	٥	
١٩٠٥ ـ ١٩٠٦	٦٩	١٥٢	٣٢	١٨٤	٣١	٥	
١٩٠٦ ـ ١٩٠٧	٥٣	١٧٩	٣٨	٢٢٧	٣٠	٧	
١٩٠٧ ـ ١٩٠٨	٤٦	١٧٢	٣٦	٢٠٨	٢٥	٩	
١٩٠٨ ـ ٠٩	٤٨	١٨٢	٣٥	٢١٧	٣٢	١٣	
١٩٠٩ ـ ١٠	٥٢	٢٠٣	٢٧	٢٣٠	٣٠	٦	
١٩١٠ ـ ١١	٧٦	٢٢٥	١٨	٢٤٣	٢٥	٢	
١٩١١ ـ ١٢	٧١	٢٣٣	٢٢	٢٥٥	٣٧	٢	
١٩١٢ ـ ١٣	٩٩	٢٧١	٣٤	٣٠٥	٢٥	٣	الانتقال الى ابنية الكلية الجديدة
١٩١٣ ـ ١٤	٨٣	٢٧٩	٤٣	٣٢٢	٣٢	١	تخرجوا في نيسان ١٩١٩
١٩١٤ ـ ١٥	٧٠	٣٠٥	٥٠	٣٥٥	٠	٠	هذا اضخم عدد استوعبته الكلية

١٨٨٣ ـ ٨٤	١١	١٠	١	١١	٠	
١٨٨٤ ـ ٨٥	١٤	٢٠	٥	٢٥	٠	
١٨٨٥ ـ ٨٦	١١	٢٦	٦	٣٢	٠	
١٨٨٦ ـ ٨٧	٢٥	٤٣	١٢	٥٥	١	اجازة افرنسية خاصة
١٨٨٧ ـ ٨٨	١٤	٤٣	٨	٥١	٠	
١٨٨٨ ـ ٨٩	١١	٥٠	٨	٥٨	٠	اعطيت لقب كلية للطب
١٨٨٩ ـ ٩٠	١٨	٥٦	٧	٦٣	٣	اعطيت لقب كلية للصيدلة
١٨٩٠ ـ ٩١	١٨	٦١	٩	٧٠	٠	
١٨٩١ ـ ٩٢	١٥	٧٦	٤	٨٠	٠	
١٨٩٢ ـ ٩٣	٢٠	٦١	٨	٦٩	١	
١٨٩٣ ـ ٩٤	٢٢	٦٧	٥	٧٢	٢	
١٨٩٤ ـ ٩٥	٤٠	٧٣	١٢	٨٥	٠	اجازة افرنسية
١٨٩٥ ـ ٩٦	٣٧	٩٥	١٨	١١٣	٠	
١٨٩٦ ـ ٩٧	٣٦	٨٩	٢٩	١١٨	٣	
١٨٩٧ ـ ٩٨	٣٩	١٠٠	٣١	١٣١	٢	دكتوراه الدولة الفرنسية ودكتوراه الدولة العثمانية .
١٨٩٨ ـ ٩٩	٢٥	١٠٦	٢٨	١٣٤	٣	
١٨٩٩ ـ ١٩٠٠	٣٧	١٠١	٢٤	١٢٥	٧	
١٩٠٠ ـ ١٩٠١	٥٤	١١٥	١٦	١٣١	٢	
١٩٠١ ـ ١٩٠٢	٥٣	١٣١	٢٢	١٥٣	٥	
١٩٠٢ ـ ١٩٠٣	٥٦	١٦٤	٣٢	١٩٦	٥	
١٩٠٣ ـ ١٩٠٤	٤٧	١٤٠	٢٣	١٦٣	٧	
١٩٠٤ ـ ١٩٠٥	٥٠	١٤٧	٢٣	١٧٠	٥	
١٩٠٥ ـ ١٩٠٦	٦٩	١٥٢	٣٢	١٨٤	٥	
١٩٠٦ ـ ١٩٠٧	٥٣	١٧٩	٢٨	٢١٧	٧	
١٩٠٧ ـ ١٩٠٨	٤٦	١٧٢	٣٦	٢٠٨	٩	
١٩٠٨ ـ ٠٩	٤٨	١٨٢	٣٥	٢١٧	١٣	
١٩٠٩ ـ ١٠	٥٢	٢٠٣	٢٧	٢٣٠	٦	
١٩١٠ ـ ١١	٧٦	٢١٥	١٨	٢٤٣	٢	
١٩١١ ـ ١٢	٧١	٢٣٣	٢٢	٢٥٥	٢	
١٩١٢ ـ ١٣	٩٩	٢٧١	٣٤	٣٠٥	٣	الانتقال الى ابنية الكلية الجديدة
١٩١٣ ـ ١٤	٨٣	٢٧٩	٤٣	٣٢٢	١	تخرجوا في نيسان ١٩١٩
١٩١٤ ـ ١٥	٧٠	٣٠٥	٥٠	٣٥٥	٠	هذا اضخم عدد استوعبته الكلية

لائحة باسماء المصادر والمراجع

الكتب العربية

بروكلمان ، كارل :
" تاريخ الشعوب الاسلامية " (خمسة اجزاء)
تعريب الدكتور نبيه امين فارس ومنير البعلبكي
بيروت ١٩٤٨ — ١٩٥٠

الجهلمي ، القاضي ابو يعلى محمد بن الحسين الفراء :
" الاحكام السلطانية "
مصر ١٩٣٨

خاتجيان ، الخوري انطون :
" نبذة مختصرة في حوادث لبنان والشام بين ١٨٤٠ و ١٨٦٢ "
نشرها الاب ف/ لويس شيخو — بيروت ١٩٢٧

خوري ، رئيف :
" الفكر العربي الحديث ، اثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي "
بيروت ١٩٤٣

الدبس ، المطران يوسف :
" تاريخ سوريا " (ثمانية اجزاء في اربعة مجلدات)
بيروت ١٨٩٣ — ١٩٠٥

رفيق بك ، محمد ؛ و بهجت بك ، محمد :
" ولاية بيروت ، القسم الجنوبي " (معرب)
بيروت ١٣٢٥ هـ.

سعيد ، امين :
" الثورة العربية الكبرى " (ثلاثة مجلدات)
مصر ١٩٢٤

الشدياق ، طنوس ؛
" اخبار الاعيان في جبل لبنان "
بيروت ١٨٥٩

العرفي ، محمد سعيد ؛
" سر انحلال الامم العربية ووهن المسلمين "
دمشق ١٣٥١ هـ

العقيقي ، انطون ضاهر ؛
" ثورة وفتنة في لبنان : صفحة مجهولة من تاريخ الجبل من ١٨٤١ — ١٨٧٣ "
نشرها وشرحها وعلق حواشيها : ابراهيم بيك ، يوسف ؛
بيروت ١٩٣٦

كرد علي ، محمد ؛
" خطط الشام " (ستة اجزاء)
دمشق ١٩٢٥ — ١٩٢٨

كرم ، بطرس بشاره ؛
" فرائد المرجان في تاريخ لبنان "
بيروت ١٩٣٢

مشاقة ، الدكتور مخائيل
" كتاب مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان "
منشأه : ملحم خليل عبدو وانطراوس حنا شخاشيري
ابيكوت مصر ١٩٠٨

مشحوق ، عبدالله ؛
" الامتيازات الاجنبية "
بيروت ١٩٢٢

مؤنس ، حسين ؛
" الشرق الاسلامي في العصر الحديث "
الطبعة الثانية
مصر ١٩٣٨

" مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنة ١٨٤٠ — ١٨٦١ "
تعريب نعيم وفريد الخازن (علاقة مجلدات)
جونيه ١٩١٠ — ١٩١١

" المحفوظات الملكية المصرية "
نشرها الدكتور اسد رستم (اربعة اجزاء)
بيروت ١٩٤٠ — ١٩٤٣

الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب "
اصدرته جريدة " الايام "
دمشق ١٩٣٧

" حسر اللثام عن نكبات الشام "
وهو كتاب مجهول المؤلف طبع في مصر سنة ١٨٩٥

المجلات

المشرق	بيروت
المقتطف	مصر

الصحف

البشير	بيروت

الكتب الاجنبية

ابو شهلا

Abi - Chahla , Habib ;
" L'extinction des Capitulations en Turquie et dans les régions Arabe " Paris 1924 .

ابكاريوس

Abkarius , Iskandar ;
" The Lebanon in turmoil , Syria and the Powers in 1860"
(Translated and annotated and provided with an introduction and conclusion by : J.F. Scheltema .)
New Haven 1920.

سياسي قديم

Ancient Diplomate ;
" Le régime des Capitulations ; son histoire, son application , ses manifestations ."
Paris 1898 .

انطونيوس

Antonius , George ;
" The Arab Awakening "
London 1938 .

عازوري

Azouri , Negib ;
" Le réveil de la nation arabe "
Paris 1905

باركر

Barker , John ;
" Syria and Egypt under the last five Sultans "
(2 volumes , edited by E.B.B. Barker)
London 1876

بنوا

Benoit , Auguste ;
" Etude sur les Capitulations entre l'Empire Ottoman et la France et sur la réforme judiciaire en Egypte"
Paris 1890.

برتراند

Bertrand , Louis ;
" Le Mirage oriental "
11eme ed. Paris 1934.

بلايزديل

Blaisdelle, Donald C . ;
" European Financial Control in the Ottoman Empire "
New York 1929.

براون

Brown , P. M. ;
" Foreigners in Turkey : their judicial status "
Princeton 1914

كرياتي

Cressaty , comte ;
" Les intérêts de la France en Syrie "
Paris 1913

دريو

Driault , Edouard ;
" La question d'Orient "
3eme ed. Paris 1905

الفتريادس

Eleftériadés , Eleuthère ;
" Les chemins de fer en Syrie et au Liban "
Beyrouth 1944

وثائق سياسية

France . Ministère des Affaires Etrangères ;
" Documents diplomatiques 1860 , Affaires de Syrie "

غالب

Ghalib , Pierre ;
" Le protectorat religieux de la France en Orient ; étude historique et politique "
Avignon , Aubanel 1913 .

غونتو بيرون

Gontaut - Biron , comte R . de ;
" Comment la France s'est installée en Syrie "
Paris 1922.

غيز

Guys , Henri ;
" Esquisse de l'état politique et commercial de la Syrie "
Paris 1862

حوراني

Hourani , A.H. ;
" Syria and Lebanon "
London 1946

هوار

Huart , Clement ;
" Notes prises pendant un voyage en Syrie "
Paris 1879

جهي

Jehay , Van den steen de ;
" De la situation légale des sujets Ottomans non - musulmans"
Bruxelles 1906.

اليسوعيون في سوريا

" Les Jésuites en Syrie 1831 - 1931 "
Beyrouth 1931.

جوبلان

Jouplain
" La question du Liban "
Paris 1908.

لونورمان

Lenormant , François ;
" Histoire des massacres de Syrie en 1860 "
Paris 1861

لورتي

Lortet , Dr. ;
" La Syrie d'aujourd ' hui , voyages dans la Phénicie ,
le Liban et la Judée 1875 - 80 "
Paris 1884.

الموارنة وفرنسا

" Les Maronites et la France "
Paris 1860.

ماسون

Masson , Paul ;
1) " Eléments d'une bibliographie française de la Syrie "
Champion 1919

ماسون (القرن السابع عشر)

2) " Histoire du commerce français dans le Levant au XVII ^e siècle"
Paris 1896.

ماسون (القرن الثامن عشر)

3) " Histoire du commerce français dans le Levant au XVIII ^e siècle"
Paris 1911

ميليا

Mélia , Jean ;
" Chez les Chrétiens d' Orient"
Paris 1929 .

نورادونجيان

Noradounghian , Gabriel effendi ;
" Recueil d' actes internationaux de l' Empire Ottoman "
en 4 volumes
Paris 1897 - 1900.

وثائق

" Official documents relating to the recognition of french missionary and benevolent institutions "
(Extract from a review) 1909.

بوجولا

Poujoulat , Baptistin ;
" Recits et souvenirs d'un voyage en Orient "
11 eme ed. Tours 1883.

بيشاري

Psichari , Jean ;
" La Syrie ; communication faite le 14 av. 1920 à la société de Sociologie de Paris "
Paris 1920

ريستلهوبر

Ristelhueber , R ;
" Les traditions françaises au Liban "
Paris 1918.

رودرر

Roederer , C. B. Paul ;
" La Syrie et la France "
Paris 1917 .

رومانی

Roumani , Adib ;
" Essai historique et technique sur la Dette Publique Ottomane "
Paris 1927.

سامنی

Samné , Dr. George ;
" La Syrie "
Paris 1920.

شوجوف

Schopoff
" Les réformes et la protection de Chrétiens en Turquie (1673 - 1904) "
Paris 1904.

صفير

Sfer , Abdallah Pacha ;
" Le mandat Français et les traditions françaises en Syrie et au Liban "
Paris 1922.

سوسه

Sousa , Nasim ;
" The Capitulatory régime of Turkey : its history , origin and nature "
Baltimore 1933.

شاهد عيان

Un témoin oculaire ;
" Souvenirs de Syrie "
Paris 1903

تستا

Testa , barone Alfred et Leopold ;
" Recueil des traités de l' Empire ~~ottoman~~ Ottoman "
10 volumes
Paris 1864 - 1911.

Tyan , Ferdinand ; تيان
" France et Liban "
Paris 1917 .

Van Dyck , Ed. A. , فان ديك
" The Capitulations "
Cairo 1880.

Verney , Mme Noêl ; فرني
" Les Puissances étrangères dans le Levant, en Syrie et en Palestine "
Paris 1900

Vogüé , Melchoir de ; فوغوي
" Les évènements de Syrie "
Paris 1860.

Et les Revues

1) " La Géographie " Tome 64 No. 5
Article de Mr. Tresse R. ; " Histoire de la route de Beyrouth à Damas 1857 - 1892 "
Paris 1936 .

---

2) " Revue d'histoire des Colonies " Paris 1936
Article de Mr. Tresse , R. ; " L'installation du premier consul d'Angleterre à Damas 1830 - 1834 "

فهرس المحتويات

مقدمة

القسم الاول ص : ١ ـ ٨

دعاوى الفرنسيين
بدء العلاقات
الامتيازات : محتواها ـ تعليل منحها ـ اولها ـ تجديدها ـ تعليق .
ما هي علاقات فرنسا ؟

العلاقات السياسية والدينية

القسم الثاني

١" ـ القناصل والجاليات ص : ٩ ـ ١٤
اول تنظيم للجاليات الفرنسية ـ سكن الجالية ـ القناصل ـ وظائفهم ـ المحاكم القنصلية ـ تنظيم القنصليات وتشريعها .

٢" ـ الحماية ص : ١٥ ـ ٢١
انواعها ـ ازدياد المحميين ـ السعي للحد من الحماية ـ حماية فرنسا للكاثوليك المسيحيين في تركيا ـ الاصلاحات التركية ـ حماية البلاد ـ دعائم الحماية .

٣" المواريث ص : ٢٢ ـ ٢٧
المواريث محميون ـ بعض اشكالا اتصالات المواريث بفرنسا ـ المواريث والانكليز ـ تعصب المواريث ـ الاكليروس الماروني ـ دور تدمير الكاثوليك لفرنسا .

٤" ـ السياسة الفرنسية من سوريا ولبنان ص : ٢٧ ـ ٤١
بين المد والجزر ـ الطمع في الدولة العثمانية ـ فرنسا ايام محمد علي باشا في سوريا ـ فرنسا بعد خروج ابراهيم باشا من سوريا ـ فرنسا والشهابيون ـ متابعة السياسة التقليدية ـ تفاصل فرنسا بعد حرب القرم ـ فرنسا وصح السلاح في سوريا ولبنان ـ العثمانيون مغلولو الايدي ـ حوادث الستين : فرنسا من اسبابها ـ فرنسا تجاه حوادث الستين ـ مؤتمر باريس سنة ١٨٦٠ ـ مؤتمر بيروت ـ اول متصرف للبنان ـ خلفاؤه ـ السياسة الفرنسية بعد حوادث الستين ـ مؤتمر برلين احتلال الانكليز لمصر .

العلاقات الاقتصادية

القسم الثالث

الصفحات ٤٢ ـ ٦١

١" ـ اهمية موقع سوريا ـ سوريا بعد الحروب الصليبية ـ الفتح العثماني والادارة العثمانية في سوريا ـ سوء الحكم العثماني ـ تنازع الطوائف ـ الاقطاع وحصر الثروة ـ فساد النظام المالي ـ الامتيازات الاجنبية واثرها ـ الثغور السورية وتجارتها ٠

٢" ـ علاقات فرنسا التجارية مع سوريا ولبنان خلال العصور ـ مراكز التجارة الفرنسية وموادها ٠

الديون العثمانية ـ المشاريع لتصفيتها ـ قرار محرم ـ مجلس ادارة الديون العمومية العثمانية ٠

الشركات الفرنسية في سوريا : شركة طريق بيروت ـ دمشق ، شركة خط حديد بيروت ـ دمشق ـ مزيريب ـ كيف اصبحت تدعى شركة خط حديد دمشق ـ حماه وتمديداتها ـ شركات اخرى ـ رأس المال الوطني ٠

الارساليات والعلاقات الثقافية

القسم الرابع

الصفحات ٦٢ ـ ٧٦

١" ـ المرسلون وامتيازاتهم ـ اخلاقهم ـ اثرهم في حياة البلاد الداخلية ـ خدمتهم لفرنسا وتعلقهم بها ـ تقدير لجهودهم ـ تأييد فرنسا للمرسلين ـ البابا يؤيد النفوذ الفرنسي ٠

٢" ـ اليسوعيون اهم الارساليات ـ اليسوعيون ومدرسة عينطورا ـ كلية الطب ـ اليسوعيون يعودون سنة ١٨٣١ ـ المطبعة الكاثوليكية ومطبوعاتها ـ كلية الطب ـ كلية الحقوق والهندسة ـ اعمال اخرى لليسوعيين ـ اثر اليسوعيين ٠

٣" ـ الارساليات الاخرى (الرجال) ارساليات الراهبات ـ بعض مدارس الطوائف والجمعيات ـ منافسة ارساليات الدول المختلفة للارساليات الفرنسية ـ موقف العثمانيين من الارساليات ـ نقص المدارس العثمانية ٠

تقدير وخاتمة

٧٦ ـ ٨٠